نجيبُ العقيقي

أرضُ اللهِ

قصّة

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

مقدمة

ثلاثة أرباع السكان بمصر فلاحون ، يكدحون على أرضها عشر ساعات فى اليوم ، معظم أيام السنة ، منذ أجيال ، ليبلغوا بمحاصيلها القناطير والأرادب والأحمال . ومع ذلك ، فلو بعث أقدم أجدادهم بينهم لما تغير عليه من غذائهم ومأواهم وكسائهم الشيء الكثير ، أو أنكروا من حياته العقلية والوجدانية والخلقية الشأن الكبير .

ومرد ذلك إلى ملاك تلك الأرض وأشباههم : فالواحد منهم يكتفى بانتظار دوره فى الولادة ، ليفتح عينيه على ثراء وألقاب وسلطان ، يتمتع بها — تمتع أجداده وأحفاده — دون أن يكلف نفسه لقاءها عملا ما من عقله أو قلبه أو ضميره . ثم يحول بين الفلاحين — وقد طوى عنهم أساليب حكمهم الذاتى ، وتاريخهم القومى ، وحقهم فى التراث الإنسانى — وبين العمل لمصر بغير سواعدهم .

هذه المأساة التى ألمت هذه القصة ببعض صورها من العهد البائد لم يكن لها مثيل فى فظاعتها واتساعها واستمرارها ، على مرأى من عقائد وحضارات وشرائع مرت بها ، وبالرغم من جهود مخلصة ، مضنية منوعة ، عجزت عن حلها .

حتى قيض الله لمصر فئة من صميم شعبها رأت فى صموده للفقر والجهل والظلم حيوية ومرونة وصفاء ، بوسعها إعادته إلى مثل حضارة قدمائه ، فى نصف قرن من التربية اللغوية والعلمية والفنية ، لو نحيت عن شئونه طبقة البضعة آلاف ميت – بين حقيقة ومجاز – تفرض إرادتها على ملايين الأحياء .

من أجل هذا قامت تلك الفئة بثورة تعترف لجميع المواطنين بالحريات وتزيل من أمامهم العقبات ، وتهيئ لهم الوسائل ، فأى منجم مواهب ومثل وبطولة كشفت عنه ؟ سيتألف فى وضح التاريخ يوم تحيط مصر بسواعد وعقول وقلوب وضمائر اثنين وعشرين مليوناً من أبنائها . ولئن كانت أرض مصر هبة النيل ، فهبة من تكون هذه الثورة المصرية ، العربية ، الإنسانية المغدقة فوق أرضها ؟

حى على الفلاح . . .

هو صوت مؤذن قرية كفر شيحا يدور بسطح مسجدها مع نسيم الفجر ، ويقع على إحدى نوافذ قصر الوقف فى أطرافها ، وينساب من خلال ستائرها الحريرية الشفافة إلى سرير عريض وثير ، فيوقظ صاحبته المستغرقة فوقه ، فى استرخاء وطمأنينة وسكينة . حتى إذا استوعبته وميّزت نبراته وطربت لنغماته هبّت مستغربة : إنه الشاعر . . .

ففيم ، إذن ، اختلاء سعادة الناظر بالعمدة والصراف والحولى ، ساعتين من الليل أمس ، بالمكتب؟ . . ودوّت فى الفضاء طلقة فوضعت أناملها فى أذنيها متمتمة : لقد قطع الصوت ! . . . كلا ، فما زال يترامى إليها — بالرغم من هديل اليمام وخرير النافورة — رخيماً ، عذباً ، مديداً . . . ولكن ما ذلك الدوى ؟ لعلّه باب رده سعادة الناظر فى انصرافه عن سرير إحداهن ، فمن تكون : المربّية ؟ لا ، لاقبل له بإزعاج طوسون — طفله الذى يعبده — فى مخدعها . السيدة نجلاء ؟ ولكنها ابتّت دعوته تجسساً على ضيوفه لاطمعاً فيه . جيهان هانم؟ لم يبق لها سواه بعد أن أوشك شبابها أن يذبل بين زواج وطلاق ، فهل يقبل عليها ؟ ولم لا ؟ ما دام فجوره الغالب عليه قد محا التفاصيل أمام عينيه : فما يميز المحصّنة ،

الجميلة ، الفتية ، من البائعات ، الدميمات ، العجائز . . .

وتجاوب الدوى فى أرجاء القصر ، فن فتح أبواب ووقع خطى وانصباب مياه : هم الضيوف ينهضون للصيد . وتطلّعت إلى عقارب ساعتها وریاش خدرها وملامح جسدها فلم تتبيّن منها جديداً ، ولكنها ذكّرتها بعشاق تهافتوا على جمالها وشبابها وجاهها فلأوا ساعتها بالمواعيد وخدرها بالهدايا وجسدها بالنظرات .

وها هى ذى تسمع سعادة الناظر يقترح على الحسان الإفطار فى الحقول ، ولماذا ؟ فليفعل ما يشاء مع من يشاء ساعة يشاء إلا الدنو منها ، وهى الفلاحة فى نظره . . .

وتسمع السيد سليم يسأل عن حزام الخرطوش . فهل يستطيع نقله وهو المريض العانى؟ . . . وتسمع ممدوح باشا يطالب ببندقية ألمانية . وكيف يرضى بسواها؟ وقد تنكر لها من أجل دخيلة اكتشفت أمرها عند وقوفها إلى جوارها بمقهى صوفر من قولها للبواب : قل لمستر ممدوه باشا إنى فى انتظاره . . .

وحينئذ نظرت فى المرآة فرأت نفسها فى صباحتها ، ودلها ، فاضطجعت تفكر فى هذا الفتى الموهوب الطبع ، الحسى الفن ، العالم . . . ألم تره ؟ وهو يقوم عن سعادة الناظر ، فى الحزب ، بإعداد خطبه وتوجيه كتّابه وتفنيد آراء خصومه ! هل أنكرت منه شيئاً ؟ . . .

سأعيد خلقه وأجعل منه وزيراً وأملأ به الدنيا . أما عرفته ؟ إنه وكيل النيابة . أين هو ؟ مع الضيوف الغادين للصيد . متى يعود ؟ حوالى الظهر . . .

وأنصتت وجلة إلى أزيز محركات السيارات بفناء القصر . ثم ألقت الدثار عنها سائلة : وعلام إغراء سعادة الناظر جميع ضيوفه بالصيد ؟ لكى يفتك أعوانه بالشاعر ويبعد عن نفسه شبهة ما دبرته يداه معهم فى الظلام . ولماذا : لترميلى واستعادتى ؟ لتشويه سمعتى والحجر علىّ ؟ لحرمانى ابنى والاستقلال بالوقف ؟ . . .

ونظرت إلى ستارة نافذتها ورأت فيها — وقد سمعت صوت الشاعر منها — صورته بكتفيه المقوستين وسحنته الحاوية وقامته الضاوية، فقالت بينها وبين نفسها : ما زال حيًّا ، وهذا هو المهم الآن، أما بعد ساعة فسأستعيده فى القصر دقائق، ولن أسهر على تغذيته وراحته وحياته ... ثلاثة أشهر وعشرة أيام انقضت ولما يعلق عنقه بحبل. . .ولكنه مغفل، فلِمَ أبى العودة ؟ حمله أبوه عليها لقاء خمسين قرشاً .

عندئذ احتضنت وسادتها بذراعيها وأغفت معها فى نوم هنىء ، على صور مضحكة من جشع عبد الرازق وحيله وتقتيره : فهو منذ استئجاره فدانين من الوقف ، وأبوه الدرويش يسدّد إيجارهما عنه ، وحين خاصمه واستقر فى الضريح أسقط الإيجار من فاضل مرتب ابنه

الشاعر المستخدم فى القصر ، وعندما هرب منه إلى الريف أصبح عبد الرازق شاكياً مماطلا متوعداً .

° ° °

وكان عبد الرازق قد شجاه أذان ابنه ، فتمدّد على الحصير فوق الفرن المبنى بالآجر فى قاعة النوم ، متطلعاً إلى الكوة التى يمر منها الدخان ويتسلل ضوء النهار ، مستريحاً من ضيق الضجيع وحذر الليل ونباح الكلب . . . وجعل يتقلب على جنبيه حيناً إلى أن سمع معركة الكلاب فى طريق الضريح ، فتذكّر أنه الخميس (يوم السوق) فهب إلى الحظيرة معجلا . ثم وقف دون بابها فجأة . ثم تبع خيوط النور بباب المنظرة ، حيث يستقبل الضيوف وينام الثقلاء منهم ، إلى مستطيل ممتد بامتداد حائطها الأيمن مرتكز عليه هو المصطبة .

وهناك أخذ يتنفس ملء رئتيه ، ويحك مواضع وخز البراغيث من صدره ، ويتأمل بيته الذى جمعته عشرة أمتار من اللبن فى سبعة ، لا طراز عليها أو خروج فيها أو عصر لها : مثل بيوت ملايين الفلاحين فى أربعة آلاف قرية . ولكنه بيته الذى سيثبت دعائمه ، يوم السبت ، على فدان لا على ثلث ، وفى مزاد علنى لا بين المصاطب ، وبحجة من المحكمة لا بخاتم مزور ، ومع زوجة ولود لا مع امرأة عاقر .

واستدار عبد الرازق على نفسه فى اتجاه بيت زوجته الأولى لاعناً

ساكنيه ، فعله فى كل صباح منذ سنتين . فهل وفاهم حقهم من اللعنات؟ كلا : لقد باعه أبوها ثلث فدان بخمسة وعشرين جنيهاً ، وعندما قصد حرثه لزراعة البطيخ ردّه عنه أخوها ، (شيخ الخفراء) زاعماً أن الخاتم غير الذى يتعامل به أبوه ، حتى إذا جن جنونه وطرد زوجته ، من دون طلاق ، استعدى العمدة عليه كفر شيحا ، واضطره إلى لزوم بيته سنة كاملة ، فلم يجد له منه مخرجاً إلا بعقد قرانه على فتاة يتيمة ، فقيرة ، دميمة . إلا أنها بنت أخت القيسى ، فجعل منها لزوجته ضرة ، وأطلق لسان أمها فى أعراض خصومه ، واصطنع أخاها أجيراً له . عندئذ هابه شيخ الخفراء ، وتحاشاه العمدة ، وحاباه الخولى ، واحتضنه حسن أفندى (مرشح العمدية) وصادقه المأذون ، فاستعاد مركزه : حلاق كفر شيحا .

وتنحنح عبد الرازق ثم أفكر : كل المصائب التى مرت به مصدرها ثلث فدان ، فما يجر عليه فدان ؟ . . . وما يحزنه ! ألم ينتصر آخر الأمر ؟ وتلفت حوله فإذا لاحت له أشباح زوجته قاصدة الاستقاء مع جاراتها ، وابنه عائداً من المسجد ، ولم ير بينهم حماته ولا ابنها ، دلف إلى الحظيرة وتناول فأساً كشف بها عن قدر تحت مربط الجاموسة ، فاستخرجها وضمها إلى صدره ، وكأنما هو يضم فداناً منزرعاً قطناً وقمحاً وبرسيماً ، دفعة واحدة ، يجنيها يوماً تلو يوم ، وتملأ أثمانها قدره ليلة بعد ليلة .

وصحت بنته خديجة على حركاته وهمهماته ، فصاحت من قاعة النوم :

— ها أنذا . أتريد الوضوء ؟

وحبس أنفاسه ، فهو لا يريد شيئاً ، وإنما يخاف على القدر من أى إنسان ، فأخفاها وراء ظهره . ثم تناول القنديل من على المشكاة فأشعله ، وقعد فوق الفرن يفرغ القدر ويعد ما فيها من نقود ، ففى الحزمة الأولى عشر ورقات ذوات مآذن : هى مائة جنيه مقصوف الرقبة (ينّى الرومى) الذى يعمل فى كفر شيحا ، منذ عشرين سنة ، بدالا وطاعماً ومقرضاً . ولم يقرضه إياها إلا بعد رهن جاموسة الشاعر ومحصول فدانين من القطن ، ووعد باستيفائها مئة وثلاثين جنيهاً . ولكن بعد سنة يفرجها ربنا ،وإلا دفع له : إن الله مع الصابرين . وفى الحزمة الثانية ثلاث ورقات خمسة وعشرة جنيهات وثمانية عشر نصفاً وتسعة أرباع واثنتا عشرة قطعة فضية من فئة القرشين : هى غلة الفدانين المستأجرين . فى حين يعيش على ما تبيعه زوجته من الدواجن ومنتجاتها ، وعلى الأجر الزهيد الذى تتقاضاه خديجة من العمل فى القطن ، وعلى ما يقدمه له الفلاحون من بواكير محاصيل حقولهم ، وعلى ما يجمعه من أنصاف قروش الحالقين فى كل سوق . فيشترى بجميع ذلك الزيت والغاز والسكر والبن ، خلا جلباب ورداء لكل منهم فى وقفة العيد الكبير ، ثم يرقب هبات الأعياد لينال قطعة لحم نذراً أو فرخاً أو حداداً . ولا يجد فى ذلك غضاضة ، لأنه حلاق كفر شيحا وفضله عليها جميعها :

يحلق رؤوس فلاحيها ولحاهم ويختن مواليدهم ويداوى مرضاهم ويبلغ عن وفياتهم .

وصحا عبد الرازق على رفع مزالج ونهيق دواب وهوشة دجاج وهديل حمام تتجاوب بها البيوت المتلاصقة أرضاً وجدراناً وسطوحاً ، فانشرح صدره لشميم أريج الشجر والخضر وباطن الأرض المحروثة – وقد لطّف من روائح السماد والروث والمخللات – وتبيّن على انشراحه من خلال تلك الضجة ، خف حماته بالباب فنادى :

– خديجة .

ثم تناول الأوراق المالية – ولم يرد دغم الحزمتين لأن لغلة الأرض فى نظره قيمة لا يعدلها مال – فوضعها فى خرقة لفّها عليها ثلاث لفات ، وشدها بخيط مكين وربطها عند خاصرته . ثم مسح عينيه الدامعتين من الرمد بكمه وهو يكرر مغيظاً :

– خديجة !

فوقفت بنته بين يديه – وسيمة الطلعة ، حمراء الرداء ، حافية – بأدوات الوضوء : إبريق وطست ونعل . ولما أخذت تصب الماء عليه ، فى خضوع فتاة الثانية عشرة ، راح يتأملها متحيّراً : لا هى بالطفلة الغرة كسائر البنات فى القرية ، ولا هى بالشابة المكتملة الأنوثة شأن الخادمات فى قصر سعادة الناظر . وهو لا يدرى أن للمناخ والطبقة والمهنة والاختلاط

أثرها فى حالة إدراك البنات إسراعاً وإبطاء .

ثم نهض فصلّى ركعتى الفجر وكررهما ، وفى نفسه حسرة : لو أن طبيب المركز زاد عمرها أربع سنوات لزوجها من الأستاذ جمعة ، وتصرّف فى مهرها تصرفه بجاموسة الشاعر ، وحرم — فى الوقت نفسه — المأذون من الاشتراك معه فى شراء الأرض . وسمع طرقاً على الباب .

— يا عبد الرازق .

ومع معرفته صاحب الصوت ، وتوقّعه لحاق القوم به ، فإنه أصبح يستثقل ظلهم عليه فى بيته ، لذلك ترك المأذون يوصى الشاعر بدابته عند الوصيد ، ليرتدى صداره المزخرف وجلبابه الأزرق وابدته الصوف الكستنائية ، وأخيراً أجاب :

— من ؟

— أنا .

— تفضل يا شيخ على .

وأطلت عينان لامعتان فى وجه خفيف اللحية وعمة منمقة وجبة فضفاضة ومسبحة طويلة . فإذا استهدى إلى مكان من المنظ ة حيَّا وقال :

— أبشر يا عم . لقد كلفنى بعضهم شراء قراريط تبلغ جملتها فداناً ونصفاً .

ووسّع له عبد الرازق على الحصير بجواره وهو ينادى :

– يا ولية . . . هاتى عدة القهوة .

فهرولت زوجته إليه مرحبة بضيفه ، مقدمة بين يديه المدفأة والوقود وآنية القهوة . ثم خرجت ترجو الله توفيقه فى شراء ذلك الفدان ، لئلا يطردها فعله بزوجته الأولى ، أو يجمع عليها بماله ضرة طمعاً فى الأولاد .

وأشعل عبد الرازق النار ووضع « الكنكة » عليها ، وأخذ يطحن البن فى المصحن بالمسوقة ، ثم قال :

– بلغنى أن الدرويش – ولم يقل أبى – سيشترى هو الآخر بضعة قراريط لوقفها على القطط فيكون لها من مال الوقف نصيب .

– . . . .

– ولكن ، من هم الذين وكلوك فى الشراء باسمهم ؟

– شيوخ وأرامل ومستعطون ممن لا يخطرون لك ببال .

– وبينهم حماتى ؟

ولما لم يجبه للمرة الثانية أحرجه :

– وكل ذلك لا يكفى شراء ثمانية أفدنة ، فكيف بالعشرة ؟

وابتسم المأذون :

– ربنا كريم : أمامنا للمحكمة يومان ، وعندنا من المحاصيل السوق ما يزيد عن حاجتنا ، وما فتئ حسن أفندى . . .

وصفق عبد الرازق ، ثم نادى ، وفى صوته رقة :

ـ خديجة .

ودخلت بنته بصينية مغسولة عليها فناجين القيشانى الصغيرة ، فبادرها المأذون :

ـ صباح الخير يا عروس .

وطفق يخالسها النظرات فيراها أجمل مما تصورّها ، ولم يخطر له أن مرد فتنتها إلى فرحها بامتلاك فدان ، للانتقام من أمها وأهلها الذين خدعوا أباها ، والعمدة وأعوانه الذين آذوه ، وجدها وأخيها اللذين أهملاه فحملاه على زواجه الثانى .

وتطلع أبوها إلى حيث ينظر المأذون من أذنيها وقال لها :

ـ سآتيك اليوم من السوق بقرط بدل هذا الخيط الحقير .

وعندما انصرفت متهلّلة ، حلّ محلها بالباب أخوها الشاعر عملاقاً ، مهلهلا ، متجهماً .

وصب أبوه القهوة فى فنجان قدمه للمأذون وسأله :

ـ وإن انخفضت الأسعار عما كانت عليه فى السوق الماضية ؟

وراح المأذون يرشف الفنجان مغالباً فى ضم شفتيه على طرفيه ، ملطفاً من حرارة القهوة بمضاعفة الشهيق ، فيسمع له ضجة تعلو على لغط اللاغطات فى قاعة النوم ، ويسيل لها لعاب الشاعر المتكئ على عصاه كالصنم .

واستحيا عبد الرازق من المأذون ، فصب للشاعر قطرات فى فنجان تناوله صامتاً ، وكرّ إلى حيث كان بقرب الباب فجلس حول عصا جمع عليها ما يملك من سن بين الخامسة عشرة والعشرين وجلباباً خلقاً وقدمين حافيتين وأريج طيب وفنجان قهوة .

ـ لم تقل لى ما تفعل لو انخفضت الأسعار .

ـ اللهم حوالينا لا علينا .

ـ افترض .

ـ تشترى أنت فداناً وثلثاً .

ـ صدقت مئة وخمسون جنيهاً ثمن باهظ للفدان فى أرض سبخة .

ـ لن يباع بأقل من ذلك .

ـ وأنّى لى ثمن الثلث إذن ؟

ـ بع الجاموسة .

هو ما كان يفكر فيه ساعة رهنها لينتى ، ويتمنى لو يقترحه أحد عليه غير زوجته ، بيد أنه تظاهر بالدهشة وأجاب ، وكأنه يتحدث عن غائب لا بشر سوىّ يشرب القهوة أمامه :

ـ وهل هى ملكى ! إنها جميع ما للشاعر فى دنياه ، خلا الأذان ، فهو يركبها ويغنى لها ويقضى معها طرف نهاره فى الحقل .

ـ وأنت تبيع نتاجها وتحرث عليها وتبادل بها .

– خفية وعند الحاجة . . . ألم تر عوفاً بالباب ؟ لقد طلبها منى لحرث أرضك ، بدل دابتك التى ننقل عليها السماد أحياناً . ولئن أنا سوّفته حتى اليوم فلكيلا يراه الفلاحون .

وتصامّ المأذون عن الكلام وتفقد خديجة ، ولما لم يجدها نظر إلى أخيها نظرة ساخرة وغمغم :

– وهل أنت خير منى ! إنى أشترى فداناً ، نصفه بمدّخر الأستاذ جمعة ، وهو أشد من الشاعر مراساً .

وغضب عبد الرازق لابنه المستضعف ، ونقم عليه تخلّفه عن الأزهر بعد سنتين ، على حين تخرج الأستاذ جمعة ، وعين مدرساً إلزامياً ، وها هو ذا يوفر خمسة وسبعين جنيهاً . . . بودّه لو يحرمه منها :

– لا إخالك تسجّل النصف باسمه .

وابتسم المأذون :

– أليسوا أبناءنا ؟ المال والبنون زينة الحياة الدنيا .

– صدق الله العظيم .

قالها ، وراح يتأمل الشاعر الأبله الكسول ، النهم ، الذى جعله الله نصف زينة دنياه وعونه عليها وجاهه بين الناس ، فما يكون حاله لولا هذا الذى يطحن الفول للجاموسة على المصطبة ؟ ورفع عقيرته :

– تعال يا عوف اشرب القهوة .

وكان يماطله فيها حتى يحضر حسن أفندى ، لتشر فقر عوف أمامه واستكمال فضله عليه بسقيه القهوة مع مرشح العمدية . ولكنه عاجله :

ـ كيف كان الرى أمس ؟

ـ سهرت عليه طوال الليل .

ـ أحسنت . ألا تريد الجاموسة لحرث أرض الشيخ على مع بقرته ! فما هذه الفأس بيدك ؟

وألقى عوف الفأس آسفاً . ثم تشاغل بالفنجان عن الجواب . وهل يستطيع القول : أنا لا أريد الجاموسة ، ولا يهمنى الشيخ على ، أما الفأس فإنى أستعيرها للعمل فى أرض العمدة دون مقابل ، فى كل سنة . وإلا عاود الانتقام منى بتلفيق التهم لى ، ولا سيما اليوم بعد حريق البيدر (الجرن) ليلة أمس .

وضاق المأذون بالصمت والانتظار ، فخالف بين ساقيه فى جلسته ، وتساءل :

ـ أين حسن أفندى ؟

وضحك عبد الرازق :

ـ لقد هرب .

ـ هرب ! وممَّن ؟

ـ تطيراً من مغبّة هذه الأفدنة العشرة التى غيرت أربابها ، فى

السنوات الأخيرة ، أربع مرات ، كان هو آخرهم . فحين عجز عن وفاء دينه استولى عليها المصرف الزراعى ، غير مسقط أنصبة الفلاحين الذين دفعوا ثمن قراريط منها .

– صل على النبى . ودعك من هذا الهراء : بالأمس انتقل إلى القاهرة طمعاً فى وظيفة . . .

– لم ينلها حتى اليوم .

– أما اليوم ، وقد ورث عن أمه سبعة أفدنة ، فلا بد له من ثلاثة أخرى لترشيح نفسه للعمدية والاستقرار بكفر شيحا نهائياً .

وقرع الباب فقفز عوف ، وجمد الشاعر ، وتطلع المأذون ، وصاح عبد الرازق :

– من ؟

ورد عليه صوتان :

– حسن أفندى .

وخفّ عبد الرازق بجماعته لاستقبال العمدة المقبل . فتقدم إليهم بين اثنين من أتباعه : رشيق الحركة ، لطيف الابتسامة ، بادى العزة – فى حذاء نظيف وقباء أنيق وطربوش دقيق – وراح يشد على الأيدى الممدودة لتحيته ثلاث مرات ، فى حين راح عبد الرازق يبالغ فى الحفاوة به :

– أهلا وسهلا ، يا مئة مرحب ، نحن زارنا النبى .

وما كاد يصمت حتى فاجأه حسن أفندى :

ــ يدك على خمسين جنيهاً .

وتلعثم عبد الرازق :

ــ خمسون جنيهاً ! وما حاجتك إليها الآن ؟

ــ هديّة منا للخولى . أجل ، لقد عزم صاحبنا فى آخر ساعة على شراء الأرض ، ولا سبيل إلى زحزحته عنها إلا بخمسين جنيهاً . أقرضها المأذون الآن يغره بها فى السوق ، ثم نحتسبها لك عند المشترين .

ــ ثمن ثلث فدان !

ــ وما أقول أنا ! وعلىّ توفير ثمن فدانين ، قبل المزاد ؟

ولم يقتنع عبد الرازق فرفع عقيرته :

ــ يا ولية .

فاستوقفه حسن أفندى :

ــ متشكرون . . .

ــ لا ، والله . . . لن تخرج قبل شرب القهوة . . . يا خديجة .

واصطنع حسن أفندى الدهاء للخروج من المأزق فجلس، فى حين وقف على جانبيه تابعاه ، وعبد الرازق يكرر نداءه :

ــ يا أم عوف .

ثم همّ بالشاعر :

– أين النسوة ؟

– ها . . .

– الولية ، خديجة ، الأرملة .

– يعددن العدة للسوق .

– وما تنتظر أنت حتى تغسل الفناجين وتأتى بها ؟

ثم ارتد إلى عوف :

– اذهب يا ولد وجئنا بشىء من الوقود على عجل .

واعتدل حسن أفندى فى جلسته ، رافعاً طرفى قبائه على ركبتيه ، مبدياً الرضا بما يحيط به من قتام ودخان وغلظة إناء ورقة حال . ثم نظر فى عينى عبد الرازق وسأله :

– ما رأيك ، إذن ، فى مقابلة سعادة الناظر ، فيأمر الحولى بالانسحاب من المزاد ، ويوفر علينا الخمسين جنيهاً ؟

وعاد الشاعر بالفناجين فوضعها بين يدى أبيه وهمهم :

– وما قيمة الخمسين جنيهاً ! أنا أحمل سعادة الناظر على نهى الحولى عن الشراء ، وآتيكم بمئة جنيه من سعادته .

فقهقه الضيوف ساخرين ، إلا عبد الرازق ، فأمسكوا احتراماً لأبوته ، وهو يفكر فى المئة : لو أن الشاعر وعد بخمسين أو مئتين لسخر منه مع أصحابه . . . أما هذه المئة بالذات فلطالما سمعه يهذى بها فى

أحلامه ، ويوازن بينها وبين خمسمائة غيرها . فهل أطبق جنونه ؟ كلا ، لأن سعادة الناظر كان قد لوّح له بها بعد مغادرة الشاعر قصره إلى الريف ، لقاء أمر لم يفصح عنه ، ولكنه يضيق به وكأنه يريد إقناعه بشيء أو إقصاءه عن شيء . حتى لحدّثت عبد الرازق نفسه بالتخلص من ابنه مرضاة لسعادة الناظر وطمعاً فى تلك المئة . ثم ردّه إلى صوابه يقينه بأن بوسع سعادة الناظر القضاء على الشاعر ، فى خمس دقائق ، لو أراد به سوءاً . . . فما معنى تبدله له وانقلاب حوليه عليه كلما سنحت المناسبات ، وأقربها اليوم ! وكأنما هو المقصود لا الآخرون . . . ورفع عبد الرازق رأسه وقال لابنه بلهجة شفيق :

ـ لقد سمعت بهذه المئة منذ سنة ، يوم كانت تساوى فداناً ، ولو كنت رجلا حقًّا ، لا بليداً . . .

فجلس الشاعر القرفصاء أمام أبيه وأجاب :

ـ أترضى بالمئة منه ؟ وأنا أتوقع أن آتيك بخمسمائة منها !

وهتف أبوه :

ـ وحياة النبي ، الحقنى ، لأشترى باسمك ثلث الأرض المطروحة بالمزاد .

وسكن الضيوف ثم تطلعت أبصارهم إلى الشاعر ، وران عليهم طيبه ونمّ لديهم عن سرّه : إنه من القصر ، وهو يعرف مكان الخزينة

فيه . فكيف يشجعونه عليها ؟ قال حسن أفندى :

– إنهم – أصحاب القصر – يسرقون الملايين منا ، منذ آلاف السنين .

واستفزه المأذون :

– وهكذا تفلح أنت حيث أخفق جدك وأبوك ، وتصبح صاحب أملاك وزوجات وأبناء .

وعاجله أبوه :

– فما رأيك ؟

– ها . . .

– الخمسمائة .

– وإن لم تكن لديها ؟

– كيف لا تجدها ، ودخل الوقف عشرون ألفاً فى السنة !

– ولكن . . .

– حطمها .

– تضربنى .

وأغرقوا فى الضحك ، وقد أدركوا غباوته ، وأسفوا على إضاعة وقتهم معه . وعندما همّ عبد الرازق بصب القهوة فى الفناجين وجدها على حالها فصرخ فى الشاعر :

ـ قم اغسلها ، جاءك البلا فى جثتك .

وأطرق حسن أفندى وهو يقول لعبد الرازق :

ـ لا مفرّ من مقابلة سعادة الناظر ، وأنت أصلحنا لذلك .

ـ وأية فائدة منه ؟ وهل يشترى قيراط إلا بأذنه !

ـ وما يضيرك أنت ! ألا تعرفه ؟ ألم يكن ابنك فى خدمته ؟ وكم مرة حاباك الخولى فى الإيجار ؟ أنسيت كيف نصرتك سكينة هانم زوجته على شيخ الخفراء والعمدة وأعوانه ؟ . . .

وجاء الشاعر بالفناجين مغسولة ، فلم يره أبوه غريباً عنه فى يوم مثله فى تلك الساعة ، وصمم على كشف سره فاختار أفضل الفناجين وكفأ ما فيه من بقايا الماء وملأه وقال للشاعر مكرّماً :

ـ قدمه لحسن أفندى .

وجعل يصب فى الفناجين الثلاثة الأخرى بعض القهوة ، فيطوف عوف بها على الحاضرين ،ثم يعود يملؤها من غير غسل ، كل ذلك وعبد الرازق يقول :

ـ لا أحب إلى سعادة الناظر من الشاعر ، فقد كان يؤثره على جميع خدمه حتى مرجان: لذلك ظهره فى الحمام ، وتقديم الطعام له ، وتنزيه كلبه فى الشوارع ، واصطحاب زوجته إلى قصر الوقف أياماً من كل شهر .

وتحمّس الشاعر :

— وكنت أعرف من وقع خطوات سعادة الناظر على السلم ما سيقوله لأهله ، وكيف يجلس معهم ، وماذا هو صانع لهم ، ومتى ينصرف عنهم .

وكان الضيوف يسمعون ، وهم يتخالسون النظرات ، مغالبين أنفسهم من الضحك ، إلا أن حسن أفندى تلقّف الشاعر :

— تذهب من ساعتك إلى القصر ، وتقابل سعادة الناظر قبل أى إنسان ، وتقول له : خولى سعادتك يزاحمنا على الأرض لنزحزحه عنها بخمسين جنيهاً ، وهذا ابتزاز يعاقب القانون عليه ، ولا يرضى سعادتك .

— ها . . .

وتناوله المأذون من يده :

— وأفهمه أنه منشار : طالع يأكل نازل يأكل ، فيسرق الوقف كما يسرقنا .

— ها . . .

وتقدم أبو لبدة — أحد تابعى حسن أفندى — بما يحقده عليه :

— حتى اشترى أربعة أفدنة من أجود الثمانين فداناً التى يملكها كفر شيحا .

— ها . . .

وأردف التابع الحرم :

— فأصبح يعاملنا وكأنه صاحب الوقف لا خولى زراعته .

وهكذا ألصق الفلاحون بالخولى جميع ما يشكون منه ، بين الناس والحيوان والأرض ، وطلبوا من الشاعر إنقاذهم منه ، وقد حملوا أنفسهم على الوثوق بعينيه اللامعتين — من أثر زهرى وراثى — ونسوا تندرهم به فى أسمارهم .

وكان الشاعر ، بالرغم من تحديقهم فيه ، وترديده « ها » الاستنكارية عليهم ، يسترجع ذكرياته مع سعادة الناظر وزوجته ، مجاهداً سحنته ويديه ولسانه ، لإخفاء ما فيها من سرور وخوف وفشل عنهم : لقد أدخل يوماً ، البهو الكبير ، وعقد له مأذون على سكينة هانم ، أمام سعادة الناظر . فلما أصبح أفرد فى غرفة ضيقة ، مظلمة ، موحشة ، بعيداً عن الحشم والخدم حتى لا كى (الكلب) ليعيش مع الجن والعفاريت أياماً وأسابيع وأشهراً . وعندما بدأت تعتريه نوبات بكاء وأنين وحشرجة زاره سعادة الناظر واعداً إياه بإطلاق سراحه ، عند تطايق سيدته ، بعد شهر . وبعد أسبوع جاءته آمرة ألا يطلقها ، مهما كلفه الأمر . ونقل أمرها إلى سعادة الناظر فمنّاه بمئة جنيه ، فعرضت عليه خمسمائة . ثم التقيا فى غرفته ذات ليلة هائجين صاخبين . ولما حاول تهدئتهما بقبوله مئة وخمسين جنيهاً ، يتفقان عليها . . . نقده سعادة الناظر صفعة شديدة أعقبها بإنذار :

– إن أنت لم تطلقها الآن قتلتك . . . قل لها أنت طالقة بالثلاث .

ووضعت يدها على فمه وصاحت فيه ناهية :

– إن أنت طلقتنى فى يوم من الأيام شنقتك .

وكاد الشاعر يصاب بلوثة فى عقله لو لم تتداركه رحمة الله ، فيترك له الباب مفتوحاً ويفر منه ، عندما جن الليل ، إلى القرى منشداً فلاحيها قصص الزير سالم وأبى زيد الهلالى ، بصوته العذب ، على ربابته الحنون ، طوال أشهر اضمحل خلالها القصر وسكانه ومشاكله . . . وحنّ إلى كفر شيحا فاشترى بما تجمّع لديه من إنشاده جاموسة صغيرة ، سمينة ، حلوباً ، عاد بها إلى أبيه ، وكأنه محكوم عليه بالإعدام : لا يعرف أعن يد سعادة الناظر أم مطلقته ، وبالرصاص أم بالحبل ، وفى الليل أم فى النهار ، وإنما تعتريه عند ذكر الوقف – والفلاحون يقتاتون منه عملا وكلاماً أكثر منه غذاء – هواجس ترتعش لها أوصاله ويسيل منها لعابه ويهذى فيها بكلمات لا معنى لها سوى طبعه بطابع غباوة ينكرها منه الفلاحون . أما وقد أراد حسن أفندى اغتصاب ثمن ثلث فدان من أبيه ، فإنه أخذ يعد الأسابيع التى مضت على عودته إلى كفر شيحا متسائلا : لم لم يقتلنى سعادة الناظر ؟ وكيف لم تشنقنى مطلقته ؟ أجل لماذا لم يفعلا حتى الآن ؟ ! واهتدى إلى الجواب : لقد انتهيا من تمثيل مهزلتهما معى ، وندما على العبث بى ، وسيعوضاننى عن إساءتهما إلى

مئة لا بل خمسمائة جنيه ليشترى لى بها أبى ثلث الأرض المطروحة بالمزاد ...
حتى صحا على حسن أفندى يشده من يده ويصيح به :

– ما وقوفك كالأبله هكذا ؟ قم إلى القصر حالا .

– فعنّد عناد البغل .

– مالك !

– . . .

– ألا تسمع ؟

– . . .

وتمتم عوف مستهزئاً : « أخذتك يا عبد المعين تعينى لقيتك يا عبد المعين تنعان » .

عندئذ انبرت الأرملة من الداخل – وكانت مع بنتها وخديجة يستمعن إلى مؤامرة الرجال على الخولى من دون عبد الرازق – فألقت أمام صهرها حقيبة الحلاقة والعقاقير ، ثم مالت على حسن أفندى متودّدة :

– لن يمنع سعادة الناظر الخولى من الشراء . ففيم أذاته ؟ ثم هو منا وفينا : ولطالما غض الطرف عن وقود تحتطبه بناتنا ، وفاكهة يتذوقها أطفالنا ، وحشائش ترعاها بهائمنا .

– هنيئاً لمن نفع وانتفع .

ذلك أبو لبدة يغير رأيه فى الخولى فيشجعها على المضى :

– أشركوه معكم فى الشراء .

وصرخ عبد الرازق فى حماته :

– انصرفى من وجهى يا وليَّة .

فانصرفت مشدوهة : ولكم سمعته يردد عليها ما قالته الآن ، فهو كاذب فى صرخته ويعرف أنها تعرف كذبه فينقمه عليها .

ويتطوع الشاعر للتعريض بها تفريجاً عن أبيه ، واحتقاراً لشأن أبى لبدة الذى يؤذن فى غيابه :

– والله ، إنى أعذر الناس فى شكواهم من طول يدها واسانها ، وكلما حاول أبى ردعها بإيوائها عندنا أكلت أضعاف ما تشتغل . ومتى استقرت بالبيت بادلت البائع المتجول ما لدينا من حبوب فى مقابل ما تشتريه لنفسها من أثواب . وما من مرة ذهبت إلى السوق بدل بنتها – لئلا تسرق أمى دجاجنا – إلا غالطتها فى الحساب .

وهبَّ عوف لنصرة أمه على الشاعر :

– ولن يعزل سعادة الناظر الحولى من الوقف . ثم إن الذى تعرفه خير ممن لا تعرفه ، فلعل خلفه يستخدم الآلات الحديثة كما هو الحال فى تفاتيش البحيرة فنهلك جوعاً .

فاستشاط الشاعر غضباً :

– ما هذا الكلام الفارغ ، يا ولد ، فى محضرنا ! أنسيت أنك

قضيت حياتك مياومًا فى الترحيلات ، ومسخرًا بين الجسور والخزانات ، تعمل تحت عصى المراقبين والموظفين عمل المساجين حتى تزوج أبى أختك ؟ . . .

ـ التى أخرجته من عزلته . . .

ـ لأشبع جوعك يا ابن . . .

وأمسك المأذون بعبد الرازق ملاطفاً ، ثم قال له مهوّلا :

ـ أنا شخصيًّا أملك نصف فدان . يؤمن دخله قوتى مع زوجتى وأولادى الأربعة ، يوم أخسر فى إيجار الأفدنة الثلاثة من الوقف ، كما وقع لنا فى بيع قطن السنة الماضية . فإن أنت ارتضيت بالإيجار طول حياتك فأنت وشأنك ، ثم لعل الحولى يحبسه عنك فهل تعود مياومًا ؟

ـ وقد يغرى سعادة الناظر بطرد من لا يملكون قراريط من كفر شيحا إلى غير رجعة .

وكأنما كانت هذه الكلمة قنبلة ألقاها تابع حسن أفندى الحرم ، فصاح الحاضرون جميعاً :

ـ وإلى أين ؟ !

ثم صعقوا : إن القرية قريبة وحاضرة ومادية ، يقومون بها ويتبيّنون منها ويعيشون عليها ، حتى لو سئل أحدهم عن وطنه لأجاب : أنا من كفر شيحا .

وفرح المأذون باستخذائهم ، واغتنمه فرصة لاستفزاز حسن أفندى فى النيل من كبريائه :

— وسيكون العمدة عونه علينا جميعاً لدى سعادة الناظر ، لئلا تقع الأرض فى يدك ثانية فتضيع . . .

واقتضبه حسن أفندى بابتسامة ساخرة ، استخرج على إثرها صورة الحجز — التى ما زالت فى جيبه — وبعد أن قرأها وضعها أمامه وأقسم عليها بالثلاث : إن لم يمنع سعادة الناظر الحولى من الشراء أو يكتفى الحولى بخمسين جنيهاً ليبعن رأسه من القيسى بعشرة جنيهات .

فهلـّل الفلاحون وكبروا ، وقد تراءى لهم رأس الحولى مفصولا عن جثته على قارعة الطريق . ولما كانوا يسمعون بالقيسى ، كل يوم ، ولم يروه عياناً فى يوم من الأيام ، فقد طوقوا عوفاً ابن أخته بنظرات الإعجاب . ونال عبد الرازق نصيبه منها ، ولكنه لم يفرح بها فرحه بالخمسين جنيهاً تستقر عند خاصرته ، ولو إلى حين ، فنهض ، وقد اتضح بيته مع الصباح وملأته زوجته وحماته وبنته فى كل حجراته ، وباستعمال جميع أوانيه ، فراح يمد عليهن وعلى من يلوذ بهن ما فى نفسه من شهوة سلطان ، إشعاراً لضيوفه بقدره :

— قم يا ولد ارتد قفطانى واحتذ « بلغتى » لتذهب إلى القصر .

وتحوّل إلى عوف :

– امض بالجاموسة إلى أرض المأذون وإياك أن تنسى مراقبة الرى عندى .

ونادى خديجة بقاعة النوم :

– رافقى جدتك حتى الوقف ، وسأمر بك فى العصر ومعى لك من السوق قرط كبير .

ومال على المصطبة :

– يا ولية . . .

وسمع الفلاحين يتنادى بعضهم على بعض فتناول حقيبته وسار وراء أصحابه ، حتى استوقفهم حسن أفندى بالباب :

– ألا نقرأ الفاتحة ؟

فأسرّ المأذون ، وهو يعبث بحبات مسبحته ، فى أذنه :

– سنقرؤها فى الضريح تيمناً بسيدى الكردى ، وإضاعة لبعض الوقت لكى تستقر أسعار السوق، ونتبين ما بيّته لنا خصومنا . ثم استدار نحو أصحابه وأصبعه فوق فمه علامة « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » .

وعندما امتطى حسن أفندى حماره الحصاوى ، ركب المأذون دابته العرجاء ، متحيراً بين اللحاق به أو انتظار عبد الرازق الواقف بالباب ، صائحاً بزوجته الثانية على مسمع من زوجته الأولى :

– يا وليّة اطبخي لنا ملوخية للعشاء .

ومشى عبد الرازق منكراً منها جدتها البالية كمعظم الفلاحات بعد الثلاثين ، وقد اختلطت عليه بأمها لولا الطست على رأس الأرملة ، معتذراً بعقمها للزواج عليها بعد شراء الأرض، وليفعل خالها ما يفعل . . . ولكن الدرويش ؟ . . .

وأقبل الشاعر فى قفطان أبيه وحذائه إنساناً جديداً : ليس على كتفيه ماض ولا حاضر ولا مستقبل . ومرّ بأصحابه ولم يسأل عنهم : فهو لا يحب أن يفتح عيناً أو يسمع صوتاً أو يمد يداً . وعندما تجاوزهم قلّب عصاه بين يديه حاسداً : ما أسعدها . ومع جهله بنوع سعادتها : من أنها غير قابلة التعيير والتهجم والتهديد ، فقد انطلق بها إلى القصر لمقابلة سعادة الناظر .

الفصل الثانى

عند مدخل كفر شيحا بيدر يتناوب الفلاحون عليه درس حبوبهم ، ويعقدون فوقه حفلات المزمار والنقرة والمبارزة بالنبوت فى أعيادهم. وإلى يمين ذلك البيدر وفى اتجاه القرية وقفت مرسيدس سعادة الناظر : سيارة ضخمة ، فخمة ، مسدلة الستائر ، إلا زاويتها المشرفة على الطريق ، فقد كانت وراءها عين تراقب الفلاحين لدى خروجهم من بيوتهم خروج عش الزنابير ، وفى انتظار بعضهم للبعض الآخر انتظار القطعان ، وعند انطلاقهم معاً لا يلوون على شىء فكأنهم مرتحلون عن قريتهم إلى غير رجعة ، فى إطراقة محروم وتسليم للقدر . وراحت تلك العين تتفرّس فيهم — وهم يمرون بالسيارة ولا ينظرون إليها اعتقاداً منهم أن سعادة الناظر فى الصيد — وكلما فقدت ضالتها بينهم ضاقت حدقتها واضطرب جفناها وانعقد حاجباها . . . حتى لاح لها ، بعد ساعة ، نفر عرفت فيهم عبد الرازق ، على دابة . فأنّى له ثمنها ! وفيم تأخره ؟ وأين الشاعر ابنه ؟ هل نزل به مكروه ؟ كلا . فها هو ذا يتحدث إلى أصحابه ، وهم يتغامزون عليه ، فماذا يقول لهم ؟

كان عبد الرازق يتشوف إلى الضريح ، باحثاً عن شيخه الدرويش ،

راوياً قصصه فى استحلال المخصص من الوقف على الكلاب ، واكتفائه ، كل خميس ، بابتياع أقة لحم واقتسامها مع كلب القصر ، ثم جمع ما تبقّى لدى الجزارين من الفضلات بين عظام وعصب وحوافر على أنها أربع أقات ، وينتهى مقهقهاً : ولكن سعادة الناظر سيطرده إن بلغه شراؤه الأرض معنا .

وتقهقر حسن أفندى بحماره ، لينظر إلى المستنقع – مستحم البهائم ومغسل الملابس ومستولد البعوض – مطمئناً :

– الضريح وراثة فى أسرتك والموقوف على الكلاب تابع له . ثم إن سعادة الناظر يخاف على نفسه لعنة الدرويش : الذى يفسّر الأحلام ويكتب التعاويذ ويقوم « بالربط » .

وتغيض قهقهة عبد الرازق لتحلّ محلها زفرة طويلة :

– لعنة الله على الدرويش ، فقد ربطنى ليلة دخلتى .

وقاطعه المأذون :

– « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك . »

وغضب عبد الرازق من شك المأذون فى مقاله فنادى :

– تعال ، يا أبا لبدة ، ألم تر الدرويش يربطنى ؟

ــ والله العظيم ، رأيته بعيني الاثنتين ، يوم عقد قران « الأسطى » عبد الرازق ، وكان فى الضريح يجمع سبعة خيوط ملونة، متفاوتة الطول ، على قطع الشبة والفاسوخ ، ثم يربطها بسبع عقدات ، ثم يعزم عليها ، ثم يضعها فى قطعة من القش .

ــ وأين دفنها ؟

ــ لعلّه تنبّه إلى وجودى فأرجأ دفنها .

وعلّق التابع الهرم :

ــ ولو اهتدى إليها لما فكّ عبد الرازق أيضاً .

ــ صحيح . فلكم استشرت الأطباء ، واستطلعت الرمل ، واستعملت الأحجبة .

ــ لا نظير للدرويش فى الدنيا كلها من السند إلى الهند .

وأشار عبد الرازق إلى الفتيان والفتيات فى الحقول وقال مستعبراً :

ــ ألا ترونهم يعنون بالماشية ، ويراقبون السواقى ، وينقلون الأسمدة ؟ بعد أن عملوا صغاراً فى مكافحة دودة القطن وجنيه وحلجه . ثم يعمرون الأرض غداً أجراء وشركاء ومستأجرين . هل تجدون واحداً بينهم ينتسب إلى ، ويعوضنى عن أحمد الذى مات صغيراً ، والشاعر الذى شب أبله ، وخديجة التى ستتزوج غداً ؟

وعلى رؤية وجوه الفلاحين الواجمة ــ وقلما ظهرت متطلقة ــ اطمأنت سكينة هانم فى سيارتها وذهب عنها ما رابها من اختلاء سعادة الناظر

بالعمدة . حتى إنها اقتنعت بصواب رأيه فى دعوة بعض الضباط ووكيل النيابة والمأمور مع مندوب المصرف الزراعى ، لإخماد ثائرة هؤلاء الفلاحين إن ثاروا فعلهم فى الماضى . وترامت إليها جلبة ففتحت باب سيارتها مستطلعة ، فإذا وراءها نباح كلاب هزيلة ، متفرقة بين مقابر متهدمة حقيرة ، حول ضريح سيدى الكردى . ثم رأت الدرويش يطل من بابه على الفلاحين فى عمامة كبيرة حمراء ، ملفوفة على قلنسوة مخروطية بيضاء كقمع السكر ، فوق لحية كثة مسترسلة ، فى وسطها حبتا زيتون ما كرتان تنتقلان بين مسبحة يلفها حول عنقه أذرعاً ، كل عشر حبات منها بلون ، وبين عباءة (مرقّعة) ضروباً وألواناً ، على حذاء (مركوب) أحمر . وكأنما حاول أن يستر ، تحت ما عليه ، مشعوذاً خلقته البلهارسيا والشيخوخة وضياع قيراطيه .

وأفسح الفلاحون — وكانوا قد تجمعوا عنده — له الطريق فلم يعبأ بهم ، بل سلكه ، وعلى حواشيه موكب من الكلاب ووراءه جمع غفير من سكان كفر شيحا بين راكبين وراجلين ، وخلفهم نساؤهم حاملات أولادهن على أكتافهن كركوب الحصان ، وفوق رؤوسهن جرار وقفف وأطسات . كلما مر بهن رجل تحجبن فأخذن مما فضل من ستر رؤوسهن على أسفل وجوههن ، ثم مشين كانسات الطريق تحتهن بما تجمع من فاضل جلابيبهن .



وأطرقت سكينة هانم على استخزاء واستحياء ، إذ تمثلت أمها بين هؤلاء النسوة ومن طينتهن ، لا تختلف عنهن إلا يوم كانت أصغر سناً وأعدل قواماً وأبهى طلعة . مما شجع سيدها الباشا المطلاق على إغوائها ثم محاولة إجهاضها ، لو لم يبادر جدها من الصعيد فيهدده بالقتل إن هو لم يتزوجها ويحتفظ بها . وهكذا تزوجها سراً ، واستأجر لها شقة دار بمصر الجديدة وأجرى عليها راتباً . وعندما رزقت سكينة ضاعفه ، حتى بلغت الثالثة من عمرها فوضعها فى مدرسة للراهبات داخلية ، محرماً على أمها رؤيتها دون أن تحدثه نفسه بزيارتها فى يوم من الأيام . ولم يكتشف أمرهما إلا على أثر إصابته فى حادث سيارة بباريس كسرت فيها ساقه ثم قضى عليه . وقد خلف لهما من الثروة أكثر من الأسف : خمسة عشر قيراطاً من نصيبه فى وقف أسرته البالغ ألف فدان ، دون الوصول إليها قضايا أخواته وأبناء عمومته وأصهارهم ، لدى جميع المحاكم ، بما فيها المختلطة — ولبعضهم جنسيات مختلفة ومزدوجة — مع جيش من المحامين ، بكل لغة ، طوال خمس سنوات . بيد أن القضاء العادل أنصفهما من أقاربهما . ولكنه عجز عن حملهم على الاعتراف بسكينة فرعاً من شجرتهم بين الناس ، خلا سعادة الناظر ، ومع أنه كان أقلهم نصيباً فى الوقف فقد اضطروا إلى إبقائه ناظراً عليه لصلته بالسراى ، وتزعمه حزباً سياسياً ، واستقراره من دون معظمهم فى مصر . . . مسكينة

أمها : لكم تعذبت فى حياتها من أقارب زوجها ! ولكم عذبتها بعد مماتها فى تزويجها من سعادة الناظر الذى نصرها عليهم ! لقد أخرجتها من المدرسة يوم أدركت وعقدت لها عليه لتجمع لها بين الثروة والجاه مع بنين يقطعون صلتها بماضيها الريفى . وسرعان ما تبدد حلم سكينة الغرة الخيالية عندما تكشفت لها دخيلة سعادة الناظر الأرناؤطى عن خمول يكاد يتعبه فى موافاة الخولى إلى قصر الوقف مرة آخر كل شهر لحساب الفلاحين ، ثم الخلوة بنفسه ساعة لتزوير أنصبة المستحقين فى مطلع كل شهر ، وعن شراهة يستنفد بها سائر أيامه سكران ، متخماً ، مغامراً بين داع ومدعو ، زاعماً أن ذلك جميعه من مقتضيات السياسة ، التى يوجهها له وكيل النيابة من وراء الستار . أما فجوره . . . فلكم حاولت سكينة إصلاحه بالتزين له ، والثناء عليه ، والبكاء أمامه ولا سيما بعيد وفاة أمها فما حركت منه قلباً أو ضميراً ، وإنما حركت منه لساناً أخذت تنذلق عنه بين الحين والحين ، تعبيرات مقذعة : ما لبنت الحرام اليوم؟! تريدين المساواة بالرجال؟ فالبسى « البنطلون » — إنك تربية خادمة لم ينفع فيها تهذيب الراهبات — يا لك من فلاحة ينكرها ذووها وتتنكر لأقارب أمها . ثم إهمال مطلق لشأنها ، لم تجد مخرجاً منه إلا بالعكوف على نفسها لإعادة بناء شخصيتها وتنظيمها وتنميقها بما كانت تسمع وترى وتقرأ ، فعل العصفورة فى بناء عشها قشة فوق قشة ، حتى إذا بلغت من المعرفة والكياسة والشفقة ما ترجو

لم تجد من تنفقها عليه سوى الفلاحين عن طريق الحولى ، أيام تتردد على القصر ، فى صحبة الشاعر خادمها الفتى . . . ولكن سعادة الناظر اختار تلك الآونة بالذات ، ليطلقها طلاقاً لا رجعة فيه . . . ويحل ، من حيث لا يدرى ، عقدة النقص التى خلقها لها بإهانته وإهماله ، فأراحها من عناء فضائلها المكتسبة ، ساعة هبطت إلى الطبقة السفلى من بدائيتها حيث دهاليز وكهوف مظلمة مقفرة ، تملكتها على اكتشافها رغبه جامحة فى ملئها بالقبائح والجرائم والخوارق . . . لولا أنها حامل فى شهرها الثانى . ولما درى سعادة الناظر بذلك ندم على طلاقه : خوفاً من ضياع نظارة الوقف ، وأبهة القصر على ولده ، فجاءها معتذراً ، مسترضياً : أنا لم يبق لى حق عليك ، ولكن هذا الجنين فى أحشائك ما ذنبه ؟ ولمن تنسبينه ؟ وهل يتزوجك متزوج قبل وضعه ؟

— وأنا ! ألا حق لجمالى وشبابى ومالى علىّ فى الحياة ؟

— ما زالت الحياة أمامك بطولها وعرضها ، لا كما هو شأنى وقد جاوزت الخمسين .

— أتريدنى أن أقوم على خدمة ابنك كما كنت خادمة لك و كما كانت أمى خادمة لنسيبك ؟

— انسى ما قلته لك . أنت لا تحبيننى وأنا لا أحبك ، فعلام الكذب بيننا ؟ ولكن بوسعك الانتظار مدة أخرى لولادة ابنى ورعايته بعيداً عن

الفضيحة ، وهو محتاج إليك ، ثم تصبحين حرة تفعلين ما تشائين مع من تشائين . أما أنا فأود أن أرزق ولداً يعيش سعيداً ولا يهمنى ما عداه . ولن ترى لى وجهاً إلا إذا أذنت لى برؤيته .

– وما العمل إذاً ؟

– المأذون والمحكمة الشرعية ودار الإفتاء ثم استخدام الشاعر محللا .

وعادت سكينة هانم من رحلتها تلك إلى الحاضر الذى يستوعب كل فكرها وحدثت نفسها : اليوم وقد ولدت طوسون ، ودفعت به إلى مرضع ، وخان سعادة الناظر عهده ، وعثرت على وكيل النيابة ، فأين الشاعر ؟

ثم نهضت إلى مقود سيارتها وانطلقت بها – نادمة على إضاعة وقتها فى اجترار ماضيها مع أنه مر بها مرور الحلم فلم يستغرق منها دقائق – انطلقت بسيارتها فى أزقة ضيقة ، متعرجة ، قذرة ، على حواشيها سعال شيوخ ذوى جلابيب مهلهلة يغزلون الصوف ، وندب عجائز مجللات بالسواد يغطين الحظائر الرطبة بالتراب ، وأغانى فتيات فى أردية صارخة الألوان معقدة يعددن الروث وقوداً على السطوح ، وجلبة صغار معظمهم صبيان عراة تحت جلابيبهم يلعبون ويلغطون ويحصب بعضهم جرو كلب قصَّر عن اللحاق برفاقه إلى الضريح .

وأوقفت سيارتها وسألت أكبرهم :

– أين بيت الحلاق عبد الرازق ؟

فأومأوا جميعهم إليه . إلا أنها أخطأت مواضع أيديهم منه فوقفت ببيت شيخ الخفراء ونادت :

– يا عبد الرازق .

فأطلت عليها زوجته الأولى ، ولما رأتها ردت الباب فى وجهها . عندئذ ترجلت من السيارة وتقدمت نحو الباب المقابل ، متنكرة فى ملاءة حريرية ، على جسد ريّان ، فوقه برقع ، استقرت حليته الذهبية على أنفها السميك الأفقى ، ونمّت خيوطه المتشابكة عن عينين جائعتين وجلتين :

– يا عبد الرازق .

وخرجت لها زوجته الثانية ، وهى تنظف يديها من بقايا العجين ، ووقفت أمامها كعلامة الاستفهام . فعيل صبرها :

– أين زوجك ؟ ألا تسمعين !

وظنتها خادمة جرّت السائق ، فى خفية عن أسيادهما ، للقاء عبد الرازق فانفجرت :

– لعنة الله عليه وعليك . تزوج عاقراً وندم . واليوم يريد امرأة مثل شراء البطيخ : حمار وحلاوة . يا لك من ساقطة ! فالكلبة لا تجرى وراء الكلب إلى بيته متبرجة متصدية مثلك . صحيح إن المختشين قد ماتوا .

وفوجئت سكينة هانم بإهانة الفلاحين لأول مرة فى حياتها . ولما استيقظت منها وجلجت : إنما أريد الشاعر لا أباه ، كانت تلك المرأة السليطة قد انصرفت عنها ، فاستقلت سيارتها وكرت إلى الأطفال تسألهم :

ــ وأين الشاعر ؟

فدهشوا جميعاً :

ــ فى الغيط ! هناك يغنى لجاموسته .

ثم تسلقوا سلمى السيارة متصايحين :

ــ نحن نوصلك إليه .

وكان الشاعر قد لمح السيارة على البيدر فى الصباح فتطيّر منها . ثم تذكر الأفدنة العشرة المطروحة بالمزاد فانحرف إليها ــ وهى قطعة واحدة فى أول ما يملكه السكان : لهذا فدان ولذاك نصف ولمعظمهم قراريط ، ولكنهم أعيان بها بالنسبة لعامة المعدمين ــ وقد اشتروها بمدّخرات تعبهم ، أو استولوا عليها باستصلاح الأراضى السبخة ، أو توسعوا فيها على حساب انتقاص أطراف مساكن الجبانة ــ واختار لنفسه منها ثلاثة أفدنة وثلث ، قعد وسطها فى عين الشمس متأملا قرية نمل أمامه ، وقد انتشر سكانها بين زارع وحاصد وخازن . فيجد من تعاونها ومثابرتها وحطتها ما لا مثيل له لدى سكان كفر شيحا الذين ما زالوا منذ أجيال يسمّون ويحرقون ويطلّقون ، من أجل فدادين لمّا تتجاوز الثمانين . على

أنه لا معدى للشاعر عن ثلاثة أفدنة وثلث ، فهى ليست للانتقام كما زعم حسن أفندى ، ولا للغلة كما يتوهم المأذون ، ولا للاستقرار كما يرجو أبوه ، وإنما لأنها الأرض : الأرض التى تقطع علاقته بالناس أهلا وجيراناً ومعارف ؛ فأسياده يحذبونه ، والفلاحون يزدرونه ، وأقاربه يستغلونه . فى حين تمزجه هى بترابها وزرعها وحيوانها ، وتشعره بأحاسيس وخواطر وآمال ، لئن خمدت فى أولها وتقطعت من نصفها وغاب عنه آخرها فإنها تخلق له شخصية لا سبيل إليها فى غيرها . وهكذا انطلق يغنى للأرض غناءه للجاموسة الغائبة عن عينيه .

وفجأة صحا على زمارة تلك السيارة تقف إزاءه ، وجلبة أطفال يندفعون نحوه ، ثم يجرونه من يديه صائحين :

— أجب إن سيدة تدعوك .

— تدعونى ! اللهم اجعله خيراً .

ومشى إليها ، وقد لاحت له ، على رؤية سيارة القصر ، جذوع الأشجار أعواد مشانق وأغصانها المدلاة حبالها المنتظرة ، ولا أبغض إليه من رؤية مشنوق معلق بين السماء والأرض ممدود اللسان .

وعندما وضع جثته بباب السيارة وسال عليه لعابه نهرته صاحبتها :

— يالك من قذر !

— سكينة هانم ؟

ـ إليك عنى . أنا لا أحب الفلاحين .

فإذا رأته ينصرف استوقفته :

ـ ألم تقتل بعد ! الحمد لله . هل طلقتنى ؟ أرنى جيوبك . أين العمدة وأعوانه ؟ ذهبوا مع الضيوف إلى الصيد .

ثم نزعت البرقع وفتحت الباب وغمزت للشاعر : أن اصعد .

فصعد ودرجت بهما السيارة ، وصاحبتها ـ وما زال تقتير الفلاحين غالباً عليها ـ تسائل نفسها : كم يساوى هذا البهيمة من جنيهات ؟ لعله لا يكتفى بها ، أو تسرق منه ، أو يحتال عليه ، فينكر يمين طلاقه . وأخيراً سألته :

ـ ألم يطلبك سعادة الناظر ؟

ـ آه .

ـ أما زلت تخافه ؟

ـ آه .

ـ لو أعطيتك مسدساً ؟ . . .

ونظرت إليه فى المرآة أمامها فرأته متجمعاً على عصاه ، وقد خرج رأسها من النافذة فابتسمت ، ثم قالت :

ـ لك علىّ عشرة جنيهات ، اليوم ساعة تطلقنى أمام وكيل النيابة .

ـ وهو تسعون ؟

ـ وما دخله هو !

ـ ألم يحل محل سعادة الناظر الذى كان قد وعدنى بمئة ؟

ـ أنا أريد الطلاق الآن لاسعادة الناظر .

ـ إذن يعطينى سعادته الخمسمائة التى كنت ذكرتها لى .

ـ ولماذا ؟

ـ لأن موقفكما قد تبدّل .

ـ دعك من المساومة وقل لى كم تريد بالضبط ؟

ـ ستمائة جنيه .

ـ وكيف تحصل عليها ؟

ـ أطلقك ثم أنكر اليمين .

هذا ما كانت تفكر فيه وتخشاه منه :

ـ وما تفعل بها ؟

ـ أشترى ثلث الأرض المطروحة بالمزاد .

وضحكت :

ـ أنا اليوم مفلسة ، لا أملك المئات ، ولكننى أمنحك عشرة جنيهات فى مطلع كل شهر .

ـ كل شهر قمرى ؟

واستغرقت فى الضحك . ثم راحت تخالسه النظر فوجدته أكبر

مما عهدته : أسمر البشرة ، غض الإهاب ، عريض المنكبين . وخافت على عنقها أن تأخذ به أسنان الشاعر فحركت رأسها ، ثم انطلقت بسيارتها حتى كادت تغطيها زوابع غبار تطلقها حافلة صغيرة (أوتوبيس) أمامها ، بالرغم من رش الطريق ، ما بين يوم وآخر ، بدلو ذلك المذنب الذى سقى البرسيم فى غير أوانه فانتشرت الدودة وأتت عليه وعلى ما يجاوره ، فأخذ يؤدى للحكومة العقوبة عملا بدلا من الغرامة التى حكم عليه بها .

وكادت السيارة تصطدم بالحافلة عندما توقفت هذه فى عرض الطريق فجأة تزمر إنذاراً لجماهير الفلاحين ، وما يفسحون لها ممراً . فجعلت سكينة هانم تتسلى بعدّ ركابها — وقد نيفوا على الأربعين ، فتكدس بعضهم فوق ما ينقلون كأنهم بضائع مزجاة ، مع أنها تضيق بعشرين راكباً عادياً — وسرعان ما ملتهم لتصلح شعرها فى المرآة ، فإذا الهواء الطلق قد ورّد خديها وأنعش شفتيها وسارع أنفاسها . . . ولكنه جلف ، أبله ، جبان ، مغمور . ثم هو فاجر الأم ، جشع الأب ، مشعوذ الجد . والتفتت إليه التفاتة شماتة جانبية وصرخت فيه :

— دافع عن نفسك . انطق . قل أى شىء .

ثم أشاحت عنه ، وفى نفسها أضداد خواطرها : إنه قوى ، وسيكون مخلصاً ، ولن يلفت إليه نظراً .

وبعد ساعة تحركت الحافلة فتبعتها سكينة هانم ، وهى تسمع السائق يسب الفلاحين لتأخيرهم إياه عن السوق ، وردهم عليه بأقذع من سبابه . ثم رأتهم يتجمهرون حولها معتذرين بما وقع لهم : فقد برز عوف بالجاموسة من بين أعواد الأذرة بغتة . وصاح حسن أفندى من فوق حصانه فجأة : انظروا يا ناس . بيدر الوقف يحترق . ثم . . .

وتصورت سكينة هانم الفلاحين وهم يحسون خطر الحريق كحس الطير ، حين تدافعوا إلى بيدر الوقف وتلاقوا عليه أصدقاء وأعداء ، أقرباء وأباعد ، وقد أزكى وهج النار عواطفهم وجمع تطاير الشرر شملهم فوقفوا صفًّا واحداً ، أمام خطر يرونه يحدق بالحياة من حيث هى حياة فيدافعون عنها بجرار ودلاء ، ذاهبة آتية ، بينما ترى الأجير آمراً السيد والشيخ عاملا فى خدمة الشاب والخطير نازلا تحت حكم الصغير ، حتى تنتهى المعركة بانتصار الحياة . . .

واستيقظت من رؤياها على نظرات حسن أفندى إلى ملاءتها وقوله لها :

– وهكذا لم يمض نصف الساعة حتى كان البيدر خليطاً من أتربة وماء ودخان .

فأدركت أن مؤامرة سعادة الناظر قد بدأت فصولا ، وأن عليها وحدها إفسادها مهما كلفها الأمر ؛ فبهرت المترددين من الفلاحين ،

ثم طمأنتهم بقولها :

ـ أنا معكم فلا تخافوا .

وتجاوزتهم بسيارتها إلى السوق على مهل ، وهم من خلفها متجمعون لتعمهم الجريمة ، واجمون إلا من نظرات شك يلقيها بعضهم على بعض لتجسيم التهمة فيه . ثم فرحوا ببوق السيارة يفرق البهائم من الطريق فرح الصبيان يصفرون ليلا تشجيعاً لأنفسهم من مخاوف يجهلونها ، حتى بلغوا السوق على أطراف أرض الوقف : وهى خلاء ممتد ، محاط بسور ، تفد إليها القرى المجاورة ، كل خميس، من الفجر إلى العصر، للبيع والشراء .

وفيما كانت السيارة تقف إلى جوار الطريق ، وصاحبتها تنضو عنها ملاءتها ، وبعض الفلاحين يترجلون عن دوابهم ، والآخرون يدفعون رسم دخول عن بهائمهم ، ترامت إليهم أصوات النادبات فتزاحموا على الباب متسائلين : أهو المجرم قد قبض عليه ؟ أم فلاح نشل ؟ أم ميت يشيع ؟ . كلا، لم يكن شيء من هذا . وإنما هو طست يحتضر، والمحضر ينعاه بين العمدة وشيخ الخفراء بثلاثين قرشاً ، عجزت صاحبته الأرملة عن دفعها للحكومة ضريبة خفر :

ـ طست بجنيه ، ولا يتقدم أحد لشرائه بثلاثين ؟ . . بثلاثين قرشاً . . . يا بلاش .

وكلَّما كرر المحضر نداءه أغرقت الأرملة فى نحيبها ، واندفعت إلى الطست تذود عنه ذودها عن عوف يغتصب منها اغتصاباً ، فيركلها شيخ الخفراء ركلة شديدة ، من حذائه السميك المتصل بقلب تملؤه الضغينة ، لخروجها على كف شيحا فى تزويج بنتها من عبد الرازق . ثم يتقهقر من ابتسامات العمدة — وهو لا يدرى إذا كانت تشفياً من الأرملة أو هزءاً به — ليصلح لبدته الطويلة ذات الشريطين الأحمر والأخضر : علامة شيخ الخفراء ، وفى منتصفها قطعة نحاسية عليها رقمه .

وأخيراً هزت الأريحية قلب سكينة هانم فنقدت المحضر مبلغ الضريبة ، وردت الطست إلى الأرملة فاحتضنته المسكينة داعية شاكرة . ثم عادت به إلى مكانها من صفوف النساء حيث ضاعت بين ركام من عجائز كالحات ، متكررات ، متوهجات بالأحجار الملونة فى أعناقهن وأساور الزجاج بمعاصمهن ، وخلاخل الفضة حول سوقهن . يساومن على ما بين أيديهن — من خضر طازجة دائماً ومنتجات دواجن وفيرة أبداً لحرمان أسرهن منها — بأصوات باردة ونظرات شاحبة وأيد جافة . أما اللواتى قنطن من البيع فقليلات : هذه تطرد الكلب عن صفيحة الجبن ، وتلك تقدم ثديها لأى طفل باك فى جوارها ، والأخرى تغفو على ثرثرة حول تأثير العين الشريرة ووصفات لإخصاب العواقر وتعاويذ لرق الأزواج والاحتفاظ بهم .

ولما فقدت سكينة هانم أمها – وما تدرى كيف تمثلتها فى صورة الأرملة صاحبة الطست – بين أولئك الفلاحات استحيت من وقفتها البلهاء أمامهن ، وهى الأرستقراطية ، فقصدت الشاعر واستوقفته فى زاوية ، ثم أسرعت إلى رجل فى ظل خيمة فتناولت معه القهوة وأشعلت من علبته لفافة . فلاح بجانبها ، كالمنشة العاج فى يده ، عوداً من جريد يخفق عليه قميص أبيض يزيد فى اسمرار صلعه ، فمن يكون ؟

واقترب حسن أفندى من عبد الرازق يخبره :

– هذا مندوب المصرف الزراعى الجديد .

– حضر قبل يومين من المزاد !

– مع المأمور ووكيل النيابة وذوات بين ضباط ورؤساء رجالا ونساء .

– وأين هذا الجيش ؟

– حلوا ضيوفاً على سعادة الناظر وقد اغتدى بهم إلى الصيد .

وتنفس عبد الرازق الصعداء ووضع حقيبة الحلاقة على كتفه ودفع الجاموسة أمامه وهمّ بالانصراف ، وهو يقول :

– لقد كان سؤال سعادة الناظر عنى إذن لإرسال الشاعر يحيى حفلة لضيوفه ، فنفيد من وساطته .

وشدّه حسن أفندى من يده وأومأ إلى وسط السوق حيث أكوام القمح والأذرة والفول والبطيخ . وما إن رآها حتى ترك الجاموسة وهرول

إلى سكينة هانم شاكياً :

– أمر سعادة الناظر ببيع المخزون من محاصيل الوقف دفعة واحدة ، لكساد القليل الذى عندنا منها ، وصرفنا عن شراء الأرض .

وزاد حسن أفندى متظلماً :

– بل إفلاسنا . فقد حمل الصرّاف على استيفائى اليوم الأموال الأميرية وتكاليف الرى .

وانضم المأذون إليهما غاضباً :

– حتى ينّى البدال ، الذى آويناه من تشريد وأغنيناه بعد فقر ، يتقاضانى الساعة ثمن السماد الكيمائى الذى باعنيه بأجل لم يحل بعد .

وسأله حسن أفندى :

– والحولى ؟

– لمحت له فتجاهلنى .

وصاح عبد الرازق :

– والشاعر ؟

وضحك المأذون :

– وما نفعه بعد كل الذى وقع من سد المياه وإحراق البيدر وبيع الطست وهذه المحاصيل . . .

ثم رفع إلى سكينة هانم نظرة استرحام جمعت حولها نظرات صاحبيه

المستخذية . فأطرقت لحظة تفكر فى مؤامرة سعادة الناظر المستحكمة الحلقات على هؤلاء الفلاحين الأميين ، المعوزين ، القذرين ، الذين تكاد لا تميزهم من بهائمهم أو تدرك لحياتهم أو موتهم سبباً . وتندم على إحسانها إليهم الذى أطمعهم فيها ، ولكن فى آخر حلقة من هذه المؤامرة الشاعر . عندئذ رفعت رأسها وأشارت إلى مخاطبيها : أن ابتعدوا عنى . ثم هوّنت عليهم :

– سأجعل الحولى يرفع أسعار محاصيلنا فلا تزاحم محاصيلكم . وسأرى ما أستطيعه لكم فى القصر . هيّاً انصرفوا .

وأسرع حسن أفندى باقتياد عبد الرازق قائلا :

– وأنا أعرف تاجراً لجاموستك – وقبل أن يسمع جوابه من أنها مرهونة لدى ينّى – نادى :

– يا عطيّة .

فبرز التاجر من بين الجماهير ليدور بالجاموسة ويسأل صاحبها :

– بكم تريد أن تبيعها ؟

– كم تدفع فيها ؟

– صل على النبى .

– عليه الصلاة والسلام .

– بخمسة وعشرين جنيهاً .

– وهل أنا سارقها !

– بين البائع والشارى يفتح الله .

وسمعت فى السوق ضوضاء فتدخَّل حسن أفندى :

– يدك على ثلاثين جنيهاً .

– لا ، والله العظيم . . .

– . . . علىّ الطلاق ما تساوى .

وتناول عبد الرازق الثلاثين جنيهاً بيد وحقيبة الحلاقة بأخرى وهو يغمغم :

– خذها ، الله لا يكسبك .

وبحركة خفيفة دس المال فى صداره وانصرف إلى زاوية ، نشر عليها عدة الحلاقة وجلس . فوقفت سكينة هانم إزاءه تراقب الفلاحين يتوافدون عليه ويجثون بين يديه، وهو يبلّ رؤوسهم بالماء ثم يعمد إلى حلقها بموسى قديمة أشبه ما يكون بالحرث حتى ينتهى ، وما أرجع رأسه إلى وراء أو مال به على جنب فعل حلاقى المدن .

أهؤلاء الذين تنتسب هى اليهم وتدافع عنهم ؟! وقصدت الدرويش ، والناس من حوله يلتمسون بركاته ، وقد رأوا فى بصبصة الكلاب إليه بأذنابها كرامات . فاستقرت عنده تسأله عن حلم رأته فى الليلة الماضية ، ففسره بأنه الطست الذى فكت حجزه . كذلك فسره الناس معه ،

وهم أكثر منه يقيناً لما يشاهدونه فى أحلامهم من صور زاهية ، مروعة ، مبهمة ، يشرحها لهم من كتاب ابن سيرين ويمزهم عليها ، حتى صاروا يحلمون بين اليقظة والمنام ، ويتصلون بالجن والأولياء ، ويجدون عندها من المقدرة ما تقصر عنه أيديهم فى واقعهم اليومى .

وغادرت سكينة هانم الدرويش إلى غجرية تكأكأ من حولها الفلاحون يزينون بوشمها أصداغهم وصدورهم ومعاصمهم ، صوراً وشجراً ومآذن ، على أسماء وألقاب وتواريخ . ولما همّت أن تمد يدها لكشف طالعها تذكرت الشاعر فهبت تبحث عنه . وأخيراً وجدته ، حيث تركته قرب الباب فى عين الشمس . وأسرعت إليه ووضعته فى سيارتها وانطلقت به لائمة نفسها : كيف نسيته طوال تلك المدة وحده ؟ ولم يقتل أو يخطف أو يعتد عليه !

وعند باب القصر دفعته أمامها على السلم – والخادم والوصيفة يعاونان الطاهى على إعداد الغداء – فإذا بلغ خدرها ووقف ببابه ، دخلت تنضو عنها ملابسها وتأمره :

– اذهب إلى مخدع سعادة الناظر وجئنى بمعطفه وخفه .

وجاءها بهما ، ولكنه تسمر على العتبة دونها ، فقد رآها مستلقية على سريرها فى غلالة رقيقة ، وبيدها لفافة تنفث دخانها من أنفها فى وجهه ، ثم تقول له دون أن تنظر إليه :

– مالك !

وتسمّرت رجلاه .

– ألم تر امرأة فى حياتك ؟

وانحنت كتفاه .

– أتعيش عازباً وأنت متزوج ؟ !

وتوقّدت عيناه .

ووضعت ساقاً فوق ساق وقهقهت ، ثم قالت :

– كيف أكون على ذمتك وتهملنى كل هذا الوقت ؟ !

وفغر فاه .

– ألا تخشى علىّ الفتنة ؟ !

ولما أجهش نفضت رماد لفافتها مهدّدة :

– إذن سأطلبك إلى بيت الطاعة !

وخاف على نفسه الغرفة الضيقة ، المظلمة ، الموحشة ، مع الجن والعفاريت ونفسه ، فصرخ :

– أنا فى عرضك .

– اُدن إذن .

وانخذلت ركبتاه .

– وفيم أدفع لك عشرة جنيهات فى مطلع كل شهر قمرى ؟



– ليشترى لى أبى ثلث الأرض المطروحة بالمزاد .

ولمّا لم ينفع فيه تخلعها واسترحامها ووعدها ووعيدها، نفد صبرها فانتصبت فى سريرها صائحة :

– مازلت خادمى ! قم من ساعتك إلى الحمام فاغتسل وتعطر ، ثم ارتد المعطف واحتذ الخف وعد إلى بعد عشر دقائق ، أسامع أنت ؟ وسأرسلك إلى المطبخ فتشبع . اُغرب من وجهى . ما تنتظر وقد ضاعت دقيقة ؟ !

° ° °

ولما عمّ السوق ركود هدأت ضجتها وتميزت أخلاطها واشتد حرها . فراح الفلاحون ينهرون المساومين القلائل اعتماداً على القدر الذى سيرسل إليهم من يدفع لهم ما يطلبون ، بالرغم من فقدانهم إرادة البيع والشراء ، مكتفين من السوق باختلاس النظر إلى مندوب المصرف الزراعى ، فما يحول عينيه عن التجار المتجولين ، وهم مثلهم قابعون تحت ظلل وخيام محمولات على أعواد وشعب ، ناشرين بسقفها بضاعتهم : سراويل وقمصاناً وملاآت . مبعثرين بينها أدواتهم : أقراطاً وخلاخل وكحلا وحناء . مصففين أمامها آلاتهم : جراراً ومقاطف وفئوساً . عارضين إزاءها مآكلهم : لحماً وزيتاً وسكراً وتبغاً . كلها سلع بدائية ، محلية ، رخيصة ، تعرضها مئات الأسواق ، منذ آلاف السنين ، على ملايين

الفلاحين. وتذكَّر المندوب ما تعلمه بباريس (وهو دكتور فى الاقتصاد) من أن « الموضة » تكون لإظهار سلطان الإنسان على المادة ، مسايرة للجو وإغراء بالطرافة وتمييزاً بين الناس. وحدَّق المندوب فى وجوه الفلاحين فلم يجد بينهم واحداً يميل إلى تبديل جلبابه ببنطلون وإبريقه بصنبور ، وجحره بمسكن ، وفأسه بمحرك ، ودابته بسيارة ، وعصاه بصحيفة . وإنما رآهم فى سن شيخوخة راكدة بجميع ما لهم وعليهم ، أبعد من أمسهم وغدهم واقنع بالرخيص : وها إن أطولهم — وهو عبد الرازق الذى تذكر بنته خديجة وعنَّ له مفاخرة أعيان كفر شيحا أمام المندوب — يساوم على قرط منذ ساعة ، حرَّك خلالها كرامة العمدة فترك لعب النرد ودعا أعوانه إلى الطعام ، وكبرياء شيخ الخفراء فابتاع ملاءة ، وغيرة المأذون فاشترى توابل . ثم تشبَّه بهم بعض السذج فأخذوا ما لا حاجة لهم به ليدفعوا ثمنه كدحاً وحرماناً وندماً أياماً طويلة .

وارتفع فى السوق صوت شجى :

— نبين زين . . . نكشف البخت . . . نضرب الودع .

وإذا بالغجرية — التى كان الفلاحون يتزينون بوشمها ، ونساؤهم يكشفن طالعهن عندها — تحمل مقطفاً فوق رأسها وبين يديها يافع يوسع الطريق لها ، وفيما كان الفلاحون يتذكرون حوادثها ويتحسسون مواضع نقودهم من صداراتهم ، وعيون رفاقها عليها اختفت الغجرية

كما ظهرت . ثم علا الصراخ :

– فلوسى يا ناس .

وآلم العمدة نواح الصرّاف :

– الأموال الأميرية يا عالم .

وأغضبه أمر شيخ الخفراء :

– الحقوا بالغجرية .

وكيف السبيل إليها ؟ وقد اختارت لهربها الوقت الذى وقفت فيه سيارة حمراء لا رقم لها بباب السوق ووراءها رتل من مثيلاتها ، وأخذ الغبار ينقشع شيئاً فشيئاً عن مجموعات من الطيور فى مقدمتها وسواقين ببزات رمادية يفتحون أبوابها .

ونسى العمدة الغجرية وهرول مع أعوانه يفسحون الطريق لسعادة الناظر وضيوفه ، ويطوفون بهم فى السوق ساعة ، مفاخرين الفلاحين بمعرفتهم رجالا فى ملابس الصيد وعدته ، ونساء على شكل الفوارس مع باقات الزهر البرى فوق أذرعهن ، ولكنهم يحملون أسماء تحدث دوياً حيثما ألقيت : على الناس وفى النعش .

وفيما كان الضيوف يعودون بمندوب المصرف الزراعى إلى القصر ، أسرّ المأمور فى أذن العمدة كلمة تكهرب لها ، وما إن استقلوا سياراتهم حتى نقلها لشيخ الخفراء فجمع هذا رجاله وأصلح لبدته وصاح :

ـ كل سكان كفر شيحا يذهبون إلى القصر ، تحت الحفظ ، هيا بنا .

وأدرك عبد الرازق ما ينتظرهم فى القصر بعد الذى أصابهم : فسيلقون فى ساحته ، حتى يبدل الضيوف ملابسهم ويتغدوا ويشربوا القهوة ويقيلوا ثم يسوقهم المأمور إلى البيدر لإلصاق تهمة الحريق بمن يريد الحولى . ثم يحجزون على ذمة التحقيق أياماً تباع الأرض فى خلالها وتفقد هذه الأموال فى صدورهم قيمتها ، مع أنها لم تتوفر لهم إلا بالكدح وبيع الأقوات والاستدانة :

عندئذ تصنَّع الذعر فى صراخه :

ـ القيسى .

فوقع اسم المجرم على السوق وقوع الصاعقة تبعث ماضيه دفعة واحدة ، فى المديرية كلها : يرتعد منه الأهالى ويخاف الاصطدام به الخفراء ويتحاشى ذكره العمد . مع أنهم يدفعون له الإتاوات ، تأميناً لحياتهم ومواشيهم وأراضيهم ، فإن أبطأوا جعل لكل رأس وحال ثمناً ، لم يخل بوعد أو يفش سراً أو يقبض عليه مرة ، إذ له فى كل قرية اسم وزى وبيت .

وانطلت حيلة عبد الرازق على السوق الواجمة . ثم أفاد من هرجها ومرجها لتسلق سورها والفرار بنفسه إلى حيث يبحث عن القيسى بلحمه وعظمه .

الفصل الثالث

سيق جمع غفير من فلاحى كفر شيحا فى طريق القصر ، فراحوا يتندرون بحيلة عبد الرازق ، ضاحكين من الخفراء ، غير آسفين على سور السوق ، وقد خرجوا إلى رحابة الحقول والمعارف والحيوان والقدر. إلى أن سمعوا نباح كلب عنيد متربص تراجعت أمامه الكلاب المحدقة بالدرويش فاضطر إلى إلقاء خير قطع اللحم له من كمه ، ومع أنه عافها فقد منع الكلاب الهزيلة الدنو منها ، حتى رقاه بتعويذة فبصبص له بذيله ، وتراجع يقود الفلاحين فى ممر مرمل ظليل ، على جانبيه بساتين الفاكهة ، حتى النافورة المتصاعدة مياهها فى الجو نبالا والمتساقطة من العرائش عناقيد عنب ، وسط حديقة مزهرة ، فوقف يتأملها حيناً ثم تركهم إلى المطبخ. بيد أن الخفراء كانوا أغلظ منه قلباً فنحوهم عنها إلى حائط القصر ووقفوا على حراستهم خطاً من اللبد الطويلة ذات الشريط الأحمر والقطعة النحاسية المرقومة ، وقمصهم وسراويلهم من التيل المصبوغ باللون الأزرق : كسوتهم الرسمية صيفاً وشتاء. على جراب من الجلد فيه ذخيرة لبنادقهم التى يحملونها بأيديهم أو يضعونها خلف ظهورهم. وجلهم مع ذلك حفاة الأقدام.

كل هذا شاهده الفلاحون كثيراً وحسدوا أصحابه عليه أكثر . أما الذى لم يشاهدوه مرة أو يخطر لهم ببال قبل اليوم فهو انصياع العمدة والصراف والحولى لأوامر خادم سعادة الناظر ، فطفقوا يمدون الأخونة حول النافورة ،ويرتبون المقاعد الوثيرة وراءها ، ويفرشونها بالأغطية المزخرفة ، ويوزعون بينها أصص الرياحين . وأغضى الفلاحون عما أمامهم وما فيهم من رأى فى بيته خطا أنيقاً أو سمع لحناً عذباً أو لمس أثاثاً وثيراً أو شم رائحة زكية ، فيترك أثراً مادياً ومعنوياً فى سماتهم وحركاتهم وكلماتهم ، يحبون من أجله الجمال ويتخيلونه ويتوسعون فيه ويبدعونه من لاشيء .

ونزل سعادة الناظر على سلم رخامى يمتد على درجاته بساط مرقش ، فبدا أصفر البشرة ، مترهل الخدين ، ندى العنق ، أصلع الرأس ، خمسينى السن . بين جماعة من ضيوفه فى مثل ملابسه : قمص حرير وسراويل رمادية وأحذية خفيفة ، ما خلا الضباط فقد أضفوا على الحديقة من بزاتهم وشاراتهم وأوسمتهم نظاماً ومهابة وشبه صمت .

ودنا سعادة الناظر من الفلاحين متفرساً فيهم فانتصبوا واقفين تعظيماً وإجلالا ، دهشين لوضاءة الضيوف فكأنهم لم يخلقوا مثلهم من ماء وطين . ثم قعدوا عندما رأوه ينكفئ عنهم إلى العمدة متسائلا :

— لم أر عبد الرازق بين الوقوف . . .

ـ كان بالسوق . . .

ـ ثم فرّ ؟ يا لك من عمدة أبله يعجز عن العمل فى أوانه ! صدق من قال : عدوّ عاقل خير من صديق جاهل .

وخفض العمدة صوته :

ـ والقيسى !

ـ ما له ! هل أغار على السوق ؟

وآلمه ألا يرتبك لذكر اسمه فأجاب متطاولا :

ـ كيف يفعل ونحن فيها ؟

ـ إذن ؟

ـ كان على خطوات منا يترقبنا ، ولو غفلنا عنه لحظة لقطع الطريق على الفلاحين وجرد النساء من حليهن وخطف الأولاد . . .

وبالرغم من خوف سعادة الناظر على ابنه من القيسى فقد كان يعرفه أعقل من أن يدور بالقصر وفيه فرقة جيش :

ـ والشاعر ؟

فأدنى العمدة فمه من أذن سعادة الناظر ، ولما استبعده عنها تقززاً ، لجلج :

ـ جاءت به حرم سعادتك من الحقل إلى السوق، ثم أخذته فى سيارتها .

ـ أرأيته بعينيك ؟

ـ بعيني الخفير الذى أقمته رقيباً عليه منذ عودته إلى كفر شيحا كما أمرتنى سعادتك .

ــ وأين هو الآن .

ـ فى القصر ! . . أو ليست الهانم ؟ . . .

ورأى سعادة الناظر شيخ الخفراء ينصت إلى الحديث من بعيد فأمره :

ـ نحّ الفلاحين لئلا يؤذى منظرهم الطاعمين .

ثم قصد المطبخ يلقى نظرة على طهو الطيور المصيدة ـ ما دامت مطلقته تأبى أن تقوم بواجب ربة البيت ـ فإذا كلبه يدور بفلاح جالس القرفصاء حول عصا فى الزاوية ، فناداه لئلا ينبحه :

ـ لاكى .

ولما جرى الكلب إليه هتف بالفلاح :

ـ أهلا بشاعرنا ، أوحشتنا ، انتظرناك بعد إيابك ، ولكن الجاموسة أنستك أسيادك .

ونهض الشاعر على عصاه ، وقد ظن حفاوة سعادة الناظر به لرضى سكينة هانم عنه فتهلل تهللاً أنساه ما كان لقنه إياه حسن أفندى بالبيت ، واجترّه فى المطبخ من : السلام عليكم ، ثم الوقوف بين يديه منتصباً ،

ثم ماذا ؟ مفاجأته بقوله : نحب شراء الأرض . أما وقد بدأه سعادة الناظر بالتحية وانتصب بين يديه فلم تبق للمفاجأة قيمة .

وربت سعادة الناظر على عنق لاكى وهو يسأل الشاعر :

— مالك فاغراً فاك هكذا ؟

فأطبق فمه .

— أقابلت سيدتك ؟

فأحنى رأسه .

— متى ؟

— إيه . . .

— وأين ؟

— إيه . . .

— وكيف رأيتها ؟

— عظيمة .

— لا يا شيخ .

— والله صحتها عظيمة .

— وما قالت لك ؟

— أشياء كثيرة .

— مرة واحدة !

ـ هدّدتنى من قبل ثم . . .

ـ ثم ماذا صنعت بك ؟

فعضّ لسانه لئلا ينطلق فى وصفها ، إلا أنه عجز عن إخفاء ابتسامته الخبيثة بعرض السرير ، فراح يوسع فيها لتبدو بلهاء .

وعقد سعادة الناظر ذراعيه فوق كرشه :

ـ أصدّقتنى الآن ؟ لا تستطيع امرأة شنق رجل مهما عظمت وقل شأنه .

ـ تشنقنى أنا ! يالك من . . .

ـ أجل ، لقد كنت مغفلا عندما اعتقدت بأنها ستمنحك مئات الجنيهات .

ـ إيه . . . ليشترى لى أبى ثلث الأرض المطروحة بالمزاد .

وضحك سعادة الناظر لحظة ثم استعاد وقاره :

ـ لن تشترى من الأرض قيراطاً ولن نعطيك مليماً .

ـ ولكنها وعدتنى . . .

ـ كذبت عليك .

ـ وسعادتك ؟

ـ ولماذا لم تقل لى !

ـ وما أقول لسعادتك ؟

ـ إنك طلقتها .

– أنا ؟ !

– إذن ، إن أنت احتجت إلىّ فى شىء . . .

– كلا ، متشكر .

– ألا تريد المال ؟

– أجل مئة ممن يريد الطلاق وخمسمائة ممن يرفضه .

– لقد تغير وضعانا .

– وضعنا جميعنا .

وكان الشاعر يغالب نفسه على مساومة سعادة الناظر ، مصمماً على رفضها ، فاهماً العكس منها ، ومداوراً فيها حتى سمعه ينهاه :

– إياك والطلاق .

فدنا منه ووضع يده على كتفه وطمأنه :

– إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق .

وألقاه سعادة الناظر بعيداً عنه :

– ماذا تقول ؟

– سعادتك تبغض الطلاق مثل ربنا ومثلى . أما الوليّة . . .

– الوليّة يا ابن . . . على كل ، إياك أن تطلق الوليّة .

وتحرج سعادة الناظر من طول غيابه عن ضيوفه فى محاورة شاعر سارح فى غفلته لم يخرج منه بطائل ، ولما همّ بالانصراف سمعه يقول :

ـ أطلقها ؟ أبداً .

ـ اطو هذا الحديث الآن وقم فأنقذنا من قرف هؤلاء الفلاحين الذين لا يعرفون كيف ترتب المائدة .

وعاد الشاعر خادماً مطيعاً فانحنى حتى الأرض :

ـ حاضر يا سعادة البك .

ونادى الناظر الطاهى وأمره :

ـ نظف الشاعر واكسه جلباب المائدة لمعاونة الخدم .

ـ ومرجان ؟ !

وخرج سعادة الناظر من المطبخ ليسمع على سلم القصر ثرثرات الحسان ـ وقد أبطأن على أصحابهن للتبرج فعلهن فى كل زيارة واستقبال ووليمة ـ وهن يتهادين مزهوات بأشكال شعورهن وبريق جواهرهن وخطوط حللهن .

ولأول مرة يتشوّف الفلاحون إلى القصر ويفرحون به ، فكل ما كانوا يعرفونه من أمره كلاب تهر أطفالهم وحمام يسقط على زروعهم وناظر يستعرضهم الحين بعد الحين أمام ضيوفه فى شم النسيم وصيد البط وبعض الليالى المقمرة لاستماع الشاعر على مصطبة العمدة . وفيما عدا ذلك فالقصر مقفل إلا نافذة مكتب سعادة الناظر تنعكس الشمس على زجاجها مرة آخر كل شهر ليلقوا وراءها منه العنت والتهكم والوعيد .

وأقبلت الحسان على الدرويش يتفرسن فيه غامزات ، هامسات ، مقهقهات . ثم انصرفن مستسامات لما عليهن من طيوب المخادع والحفلات والمنازه ، فاشتدّ فضول الفلاحين نحوهن واشرأبت أعناقهم وراءهن — وما ينفع فيهم نهر الخفراء — مسائلين أنفسهم : ألسن هن الحوريات التى وعدنا الله فى الجنة ؟ وكيف تغنى واحدة عن الأخرى ؟ وهل ملابسهن الداخلية . . ؟ لكن أيجرؤ فلاح على واحدة منهن ؟ أم ترضى حورية بواحد منهم أباً لأولادها أو زوجاً أو صديقاً ؟ إنهن مثل تشريفة سعادة الناظر يكتفى منها بالنظر فى كبرى المناسبات .

هذه هى الصور التى عمرت بها مخيلاتهم ، ولم يخطر لفلاح أن يسأل نفسه عن القصر ورياشه وتحفه ، أو ما يملكه أصحابه من قصور بمصر وأموال لشراء أمثاله فى العالم ، أو أن يعرف أصحابه : كم عددهم ؟ وأين يقيمون ؟ وما يعملون ؟ ولو أن إنساناً عرض عليهم الإجابة عنهم لسألوه : هل كلهم متزوجون ؟ أو فيهم مطلقون وأرامل وعوانس ؟ ثم أمتخاصمون هم أم متفقون ؟ أجل متخاصمون . وفى طليعتهم سكينة هانم الواقفة بجانب نافذة المطبخ تشعشع أمام مرآة صغيرة حمرة شفتيها ، وتزجج قوسى حاجبيها وتموّج خصائل شعرها المتهدل ، حتى إذا رضيت عن صورتها أصلحت الزمردة ببنصرها ورحرحت مخصرها وأمرت الشاعر :

ـ أن أقرع الصنوج .

ثم طلعت على ضيوفها ممشوقة القد ، سمراء اللون ، سوداء العينين ، باسمة الثغر فى نضارة بنت السابعة عشرة ، فما يلحظ ضيق جبينها وضخامة أنفها واتساع فكيها . وعلقت بها أبصار الرجال فى إعجاب ، ونظرات النساء على كره ، إلا أنهم تبعوها جميعاً إلى الأخونة فراحت ترتبها بين كل رجلين حسناء ـ خلا ممدوح باشا الذى احتفظ بينته العانس ـ فجلسوا يتحدثون : خلائق لم تعرف ، فى يوم من الأيام ، الجوع والعطش ولا البرد والحر ولا التعب والقلق .

وطفق الخادم والشاعر يطوفان عليهم بأطايب القديد والشواء والفطائر ، وفى نفس الشاعر أسف على فقدها بعد مغادرة القصر ، ثم عزاء المتأكد من أن أحداً من الفلاحين لم يذق ولن يذوق لها طعماً طول حياته . فكيف أطلقها ؟

وانصرف مقهقهاً عن غير علم منه بأنه كان يفكر بصوت مسموع .

والتفت الضيوف إلى بعض مستنكرين فتلافى سعادة الناظر نقيصة الشاعر بسؤال زوجته الجالسة إلى خوان إزاءه :

ـ أراك مستغرقة ! أما شفيت من صداعك ؟

وأنجدته جيهان هانم جارته ـ ومن دأبها خلق جو لطيف حولها ـ بالعتب على مضيفتها :

– لو أنك صحبتنا إلى الصيد لسرك إقبال الرجال عليه وتزاحمهم فيه ثم انسلالهم الواحد تلو الآخر للحظوة بحديثنا .

فأغضت النساء وتضاحك الرجال ثم اشتطوا فى الحديث :

– أنا عدت بسبع عشرة يمامة .

– بعد خمسين طلقة .

– خير من اقتناص حمام الفلاحين .

– وما حيلتى ! هل أرقب الأوز العراقى حتى ديسمبر ؟

– ذكرتنى بما وقع لنا من البط فى بركة دهشور . . .

وكانت سكينة هانم تسمعهم وتراهم وتؤاكلهم دون أن تفهمهم أو تعرفهم أو تستطعم مآكلهم . وبحثت عن الشاعر ، وعندما لاح لها – بعيداً منها يقف بصينية الحمام المشوى ، ويدور بها معه سعادة الناظر على الطاعمين – راحت توازن بين المديد ، الغض ، الشديد ، وبين الضخم ، الباهت ، الرخو ، فتحب الشاعر وتكره سعادة الناظر . فإذا وقف بجوار ممدوح باشا – الحامل على كتفيه بطيخة لم ينضج منها سوى طربوشه – ابتسمت ، ثم كادت تضحك لتباعد الشاعر عن صاحب الوجه الخالى من أمارات النبلاء وسماء الكادحين : هو السيد سليم .

ورجع سعادة الناظر إلى خوانه فسألته جيهان هانم :

– وأنت ! ألا تستزيد من صيدك ؟

– أنا زدت ثلاث أقات فى المدة الأخيرة ولا أدرى لذلك سبباً .

والذى لا يدرى سواه تغامز الضيوف على مطاردة زوجته الشاعر بعينيها الباسمتين وكتفيها المستديرتين ويديها المكتنزتين ، فهل نسيت وكيل النيابة فيه ؟ وخطر له إظهار الشاعر على حقيقته : خادماً حقيراً ، غبياً . لإنزال الوكيل إلى دركه . ثم مزاحمته به فى إيقاظ عناد زوجته . وهكذا استوقف الشاعر وسأله :

– أين أبوك ؟

– مع الفلاحين فى ظل القصر .

– أتهزأ بنا أنت الآخر ؟ لقد فرّ من السوق ، وإنك تعرف مكانه .

فوقع الفرار على مخه كضربة المكنسة أفرغته من جميع ما فيه .

– إن لم يحضر الساعة طردناكم من كفر شيحا .

لقد كانت حفاوته بالشاعر طمعاً فى خدمته على المائدة لا مرضاة لسيدته ، وها هو ذا يصيبه فى كبريائه أمام العمدة والصراف والحولى ، فلابد من اصطناع الحيلة معه فى العبث بلبدته شأنه يوم كان غلاماً حليق الرأس إلا من ذؤابة وخرزة زرقاء بعنقه .

– تحرّك يا حيوان .

وهذا الانتقال المفاجئ من ملاطفة الضيوف إلى طرد الفلاحين أوضح

عقلية سعادة الناظر التى كان يضيق بها أصحابه وأشياعه — ولكنهم يتحملونها منه لكرمه ووساطته لهم ، ولا سيما اليوم وفى الجو شائعة عن إقالة الحكومة لإقامة وزارة ائتلافية . ولولا ذلك لما أذنت السراى لممدوح باشا بقبول دعوة سعادة الناظر — ويفيد هو منهم فى نشر نفوذه السياسى لبلوغ كرسى الوزارة .

وقصد الشاعر الفلاحين باحثاً عن أبيه بينهم فوجدهم — وقد اصفرت الشمس من فوقهم وانطفأت النسمات بين أيديهم وثقل ظل القصر عليهم : هذا القصر الذى طالما فاخروا به القرى المجاورة — ساهمين واجمين مستسلمين ، كأنهم خجلوا من جمال الضيوف وأناقتهم وترفهم وطمعوا فى لون مما على مائدتهم ، بله الحب والصداقة والرعاية ، وأسفوا على إحاطة ضعفهم وحرمانهم واتهامهم بهالة من الإهمال والاستعلاء والإغضاء عن يد الخفراء .

ولما رجع الشاعر بصينية خضر مشكلة نظر إليه سعادة الناظر ، وقد تذكر حاجته إليه ، نظرة رضا ، فلم ينخدع بها بعد غياب أبيه فما كادت تفرغ حتى استدار نحوه وفاجأه :

— نحب شراء الأرض .

وبهت سعادة الناظر ، فتطوّع أعيان كفر شيحا — الذين يعاونون الخادمين على المائدة باستبدال صحاف الصينى وآنية الفضة وأكواب

البلور من أخرى نظيفة – بالرد ، فقال العمدة :

– أوه ، كل واحد عندنا يحب شراء الأرض حتى الصعاليك يسعون وراء قراريط .

وتذكر شيخ الخفراء حسن أفندى :

– والملاك أنفسهم يطمعون فى المزيد، ولو أنهم حسّنوا ما يملكونه لضوعف دخلهم .

وأطمأن المأمور :

– وكفونا خلافات تتجدد كل يوم .

وتشجع الصراف :

– وبم يشترونها ؟ ولمّا يدفعوا إيجار الوقف ويفكوا حجز الحكومة ويوفوا ديون المصرف الزراعى .

كل هذا ، والشاعر يتصبب عرقاً ويتلفت حوله مستنجداً ، ثم يعض لسانه حانقاً على هذه الأسئلة التى بلبلت عقله ، مع أن لديه أجوبة عنها جميعها ، ولكنها عارية من الكلمات، حتى ما كان ابتدعه من : ها ، وهه ، وآه ، ليموّه بها خواطره ومشاعره وأمانيه على مخاطبيه ومستمعيه والجاموسة ، جفّت فى حلقه . وأخيراً فتح سيدى الكردى عليه :

– جدّى ضيّع المصرف الزراعى عليه قيراطين . وأبى رده خالى عن

ثلث فدان . وأنا فى إمكانى شراء ثلث الأرض المطروحة بالمزاد . . .

وقاطعه الحولى :

– تشترى ثلث الأفدنة العشرة ؟ أنت !

وأجابه وكأنه يبصق فى وجهه :

– صه . أنت منشار : تسرق الوقف وتسرقنا .

وضجت المائدة بالضحك ، والشاعر أعلاها صوتاً وما يعرف لذلك سبباً ، إلى أن صرف سعادة الناظر العمدة وأعوانه بقوله :

– اذهبوا تغدوا فى المطبخ لأنكم ستصحبون وكيل النيابة والمأمور والصرّاف إلى البيدر للتحقيق مع الفلاحين .

– ولكن مرجان – خادم سعادة الناظر الذى كان قد بعثه منذ الصباح ، برسالة إلى صديقه النائب العام ، راجياً انتداب وكيل النيابة للتحقيق فى حريق البيدر – لم يرجع بعد .

وظلت سكينة هانم فى تفكيرها عند الشاعر فاستصرخت :

– ثلاثة أجيال تخفق فى امتلاك قراريط !

فارتد إليها سعادة الناظر مفنداً :

– وهل صدقت هذا المنافق ؟ إن جده مشعوذ ، وأباه أحمق ، وهو معتوه .

فأغضب ذلك الشاعر وصاح :

— وسكان كفر شيحا ! أكلهم مشعوذون ، حمق ، معاتيه ؟ إن أعياننا لا يملكون غير الثمانين فداناً معظمها قراريط . أما سوادنا فمعدمون . وسعادتك تأبى معاونتنا على شراء الأرض بصرف الحولى عنها .

ومالت السيدة نجلاء على جارها المندوب — لتكشف عن رأيه وتغمز فى الوقت نفسه سكينة هانم — وقالت له :

— كل ذلك يقع بجوار وقف من ألف فدان . . .

وأراد المندوب أن يبهرها بواسع علمه وإطلاعه فى شئون الاقتصاد والمال فأجاب :

— شأن ملايين الفلاحين بجوار ملايين الأفدنة . . .

— ومن يملكها إذن ؟

— ٢٧٦,٦١١ مخلوقاً يملكون ٥,٩٦٣,٦٦٤ فداناً .

— بما فيهم الفلاحون ؟

— إن أنصبتهم ترتفع من نصف فدان إلى خمسة أفدنة بنسبة ٧ بالمائة لكل ٥٣ منهم و ٢١ لكل ٤٨ و ٣٥ لكل ٩٤ ، فى حين أن ١٨٠ إقطاعياً يصيبون منها ٥٨٣,٤٠٠ فدان ، و ٢,١١٥ آخرين يستولون على ١,٢٠٨,٤٩٣ فدانا .

وجاء التلميح واضحاً إلا للحسان ، والرأفة أقرب ما تكون إلى ماقيهن ولولا الخضاب لاستعبرن فاكتفين بألسنتهن :

– أمتأكد أنت ؟

– . . . كل مصر !

– ملك الأقلية . . .

– . . . والنبى ؟

– ودينه الذى ارتضاه الله لهم لو استطاعت الأقلية الوصول إلى ميراثهم الحقيقى فيه . . .

وأمر سعادة الناظر الشاعر بوضع الصينية من يده على الخوان ، ثم سأله :

– أين الصك ؟

– فى المحكمة ، يوم السبت .

– لا يا ثور ، بل صك تنازلك لى عن قصورك فى الجنة .

وسخرت المائدة من المندوب أكثر منها من الشاعر ، فقال :

– وما حاجتكم إلى صكوك وهل اعتمدتم عليها فى طيكم عن الفلاحين لغة أجدادهم وتاريخهم وثقافتهم ؟

– لنحرق بيادرهم .

وحزن الشاعر لانتقاص المندوب من معارفه أمام الضيوف ، فقصد البركة وقعد على طرفها وفاجأهم :

قال الراوى : فلمّا كان العصر وحضر كليب إلى القصر بكت

الجليلة من فؤاد مبتول وأنشأت تقول : صلوا على طه الرسول .

وصلّوا على النبى ، وهم يتماسكون من القهقهة ، خلا سكينة هانم فقد انفجرت فيها مغرقة هازئة، حتى تأكد سعادة الناظر أنها كانت هازلة فى مطاردة الشاعر فعزّ عليه أن ترجع إلى الوكيل ، فمال بها إلى المندوب — وما هو أقبح من الوكيل منظراً ولا أقل علماً ولا أكبر سناً — لعلّه يستهويها ، فاستدرجه باستفهامه :

— أرأيت أن الشاعر يتقن تاريخ العرب أكثر منك ومنى ؟

— إتقانه روائع العلم والأدب والفن ، التى أبدعها الجهد البشرى خلال الزمان والمكان ، للإنسانية جمعاء .

وأمر سعادة الناظر الشاعر :

— أن ادن .

فبكى .

— وما يبكيك ؟

— ربابتى ليست معى لأنشد عليها .

— لا عليك ، فنحن لا نريد الإنشاد الآن بل إقناع حضرة المندوب بأننا لا نستطيع سرقة المحتالين من الفلاحين أمثالك .

— تسرقون أنتم ؟ معاذ الله .

— تعال إذن يا جبان .

– وهل يجرؤ ؟

– ولم لا ! ألم يهددنا أبوه بالقيسى فى السوق ؟

– وما حيلتهم فيكم ما دمتم قد حرمتم عليهم الاتصال بكم ، مع أنكم تتولون سياسة بلادهم واقتصادها وثقافتها باسمهم .

ولما رأى سعادة الناظر سكينة مشغولة عن كلام المندوب بالتهام الطعام التهام القطة الشرهة ، قنط منه وتطلع إلى الضابط احمد – الذى استعصى على الخمر بالمكتب ، بالرغم من التستر فى شرابها مع خاصته – فألفاه فتى كريم الوجه والأنف والفم ، إلا أنه لا يفتحه إلا للأكل . فكيف ينطقه ليلفت نظر سكينة إليه ؟ وهل عنده شىء تعجب به ؟ من يدرى ! وفى صفوف صغار الضباط حركة عميقة ، مستترة ، قد يستدرجه إلى بعض أسرارها . . . وغمز للشاعر الواقف وراء المندوب وقوف الصنم ورجاه :

– تكرّم بسؤال حضرة الضابط عن الجيش . ألا يرانا هو الآخر قد أسأنا فى حق وطننا فيعتقلنا .

وفوجئ الضابط بالشاعر يفتح فى وجهه فماً خاوياً ، ولكن قوة انتباهه التى جعلت منه بين رفاقه زنبوراً يلسع برأيه فى حينه أسعفته فأجاب على الفور :

– إن للبلاد حدوداً ثلاثة : فالسياسية نتيجة تاريخها ، والستراتيجية

دمغة جغرافيتها ، والمثالية خلاصة حضارتها . ولطالما عجز المغير عن الأخيرة أو اضطر إلى الأخذ بها إن كان دونها تمدناً .

وأدرك سعادة الناظر أن سكينة لم تفقه من ذلك حرفاً فأسرع إلى استجلائه باستفزاز صاحبه ، قبل أن يتقدم الوكيل للرد عليه :

ــ ما هذا الهراء ! قوّموا حياتهم العقلية والوجدانية والأخلاقية، فهل تزيد عن أسطر من السخافة والأنانية والاستسلام ؟

ثم أشار إلى جماعات الفلاحين فى ظل القصر ، وأمر الشاعر :

ــ ادعهم لنا ليأخذ المغير عنهم حضارتنا .

فارتفعت أصوات الحسان بالاحتجاج :

ــ ما هذا القرف !

ــ أتريدنا على تقيؤ ما طعمنا ؟

ــ أم طردنا بلطف .

إلاّ صوت سكينة هانم ــ وقد احتارت فى أمر الوكيل الذى أعدت له جميع ما تملك من شباب وجاه ووقف ، شرط أن يكون مستعداً دائماً وأبداً لقبوله والتمتع به والدفاع عنه . فما باله طوال هذه المساجلة ، عيياً مستكيناً ، لا يشبه فى شىء الصورة الفذة التى تمثلتها عنه وأرادت عرضها أمام ضيوفها ومباهاتهم بها ــ فاحتجّت على احتجاجهن :

ــ ولكنهم مصريون مثلنا .

ثم رشقت الضابط بنظرة إعجاب طرب لها سعادة الناظر طربه للسمكة تعلق بالشص حتى أشاح الضابط عنها ليجيب فى ضيق :

– ما كان أغنانا عن هذه الألفاظ ، لو اعترف لملايينهم منذ آلاف السنين بالحريات وأزيلت من أمامهم العقبات وهيئت لهم الوسائل ، إذاً لما اجتاحنا الغزاة على التوالى وغيَّروا معتقداتنا ولغاتنا وشرائعنا أكثر من مرة .

وكان الشاعر يتنقل وراء ظهور المتكلمين تقليب الكلاب عيونها فى وجوه الطاعمين كلما فتح واحد منهم فه للقمة ، فتتسلى الحسان بتبيُّن وجه الشبه بين الإنسان والحيوان عن لغو سياسى بدأ يتسرب إلى مسامعهن عن فتيان هواة – متغلغلين بين الأحزاب والصحافة والجامعات – فى المآدب والحفلات والمنازه فكاد يفسدها عليهن . حتى دخل الشاعر المطبخ فالتفت سعادة الناظر إلى الضابط وبودِّه لو قال له :

أنت أقرب الناس إلى بلاهته وأصغر شأناً من الحركة وأعمى بصراً عن سكينة ، فكيف دعوتك ؟ ثم أهمله ليبحث لها عن رجل يحسن استمالتها وتقبل هى عليه ، فتقابلت نظراتهما ، من حيث لا يتوقعان ، عند ممدوح باشا .

وبحركة تلقائية لوت سكينة رأسها على أسف .

أجل : فقد كان الباشا ينظر إلى الطاعمين ، من عل ، بعينى تمثال .

ـ والسيد سليم ؟

فرفعت أنفها فى ازدراء :

معها حق : فهو يغازل جارته غزلا رقيقاً تنم عنه ابتساماتها من وراء أناملها .

ـ وحسن بك ، الضابط الكبير ؟

فهزّت كتفيها .

ـ والمأمور ؟

عندئذ خرجت من عقلها الباطن إلى حقيقة إخفاقها مع سعادة الناظر فى العثور على زوج لها فاستضحكت .

وطأطأ سعادة الناظر رأساً تعب فى تنقيله من وجوه ضيوفه ـ تنقل الشاعر وراء ظهورهم ـ إلى عينى مطلقته . وعاوده منها ، على تعبه الآن ، اجتهاده وجهاده وعذابه : لقد طلقها تطليق الأزواج نساءهم اعتماداً على محلل يعيدهن إليهم إذا راجعوا أنفسهم . ولكن سكينة أبت إلا أن تلجئه إلى المأذون والمحكمة الشرعية ودار الإفتاء ، معترفاً لها بأعراض الحمل ولنفسه بأبوة الجنين ، طالباً رد اليمين بالفتوى ، فردّ طلبه لأن حكم الشرع واضح : المحلل . وفى سبيل جنينها اختارت الشاعر محللا ، ثم أمسكت به بعد ولادتها لترفعه بينهما ستاراً إنسانياً يفصل سعادة الناظر عن معاشرتها معاشرة الأزواج .

ورفع سعادة الناظر رأسه ، وقد بدّل خطته وأمسك بالمندوب المتطاول ، وهو أول من وقع عليه بصره فقال له :

– عجيب ما تعلمته بباريس يا دكتور ، وأعجب منه أن تكون ذكرته فى أطروحتك لتشويه سمعة حكومة لا ذنب لها سوى إرسال بعوث من أمثالك إلى أوربا ليتعلموا العيب فيها ، ثم تسكت نيابتها عنهم . هناك مليون فدان مرهون . وفى السنة الماضية نزعت ملكية خمسين ألفاً ، فلماذا لا يشتريها فلاحوكم ؟

وصحا المندوب من الخمر على الخطر الذى ساقه إليه رأيه بالرغم منه ولكنه أنف التقهقر عنه لاعتقاده بأنه سيترك أثراً فى نفس سعادة الناظر – وهو وأمثاله يفكرون بعقول غيرهم – لعله يبلغ بعضه بيان الوزارة الجديدة . فأخذ يرسم خطوطاً طويلة على طبقه ، ويجيب بلهجة التلميذ المتردد :

– صحيح . . . لماذا لا يشترونها ؟ مع أننى ، وأنا مندوب المصرف الزراعى المطوّف بتفاتيشه ، لم أر الفلاحين من جميع الأعمار وكلا الجنسين إلاّ شبه عراة . يعملون مع بهائمهم إحدى عشرة ساعة فى اليوم ، طوال أعمارهم ، حتى إذا ماتوا لم يخلفوا لأبنائهم سوى الآلات التى كانت بأيدى أسلافهم ، ليعملوا فى أرض أسيادهم . صحيح ! لماذا لا يشترون ؟

وأومأت سكينة هانم للوكيل الرابض إزاءها فى قوة وسلطان وتحفز :

أن ابطش بالمندوب المتهكم – لها أو عليها ؟ – ولمّا استخزى سخرت منه بتساؤلها :

– وهل يملكون غير الفقر والجهل والمرض ؟ – وهى كلمات كانت الصحف تكثر من تداولها – فن يبيعهم أرضه بها ؟

هذه اللهجة الاستنكارية أعادت إلى المائدة مرحها ، إلى أن مسح المندوب الخطوط التى كان قد رسمها فى طبقه ، واستدرك :

– لا أحب مغالطتك . ولكنهم ، على الرغم من فقرهم وجهلهم ومرضهم ، قد بلغوا بمحاصيل مصر ملايين القناطير من القطن والقمح والأذرة والأرز و . . .

وقاطعه سعادة الناظر بصوت متراخ :

– من أرضنا الغنية وإنفاقنا عليها وتوفيرنا الأسواق لغلاتها .

ولم يلق المندوب إلى المقاطعة بالا ، وإنما انتظر توقف صاحبها ليفرغ جعبته :

– أما الاستهلاك، وهو النتيجة النهائية للإنتاج، فلو قيست المساحة التى تزرع برسيماً ، وتقدر بنحو عشرين بالمائة ، لرأيت أن حظ بهائمهم التى تشاركهم العمل والسكن والماء . . .

– من الغذاء أوفر وأفضل .

– فهل يرضى فلاحو الغرب . . .

– لو كان لنا فلاحو الغرب لأصبحت مصر أغنى بلاد العالم .

– بل لو كان لنا . . .

– ماذا ؟

– أقول لك ؟ لا .

ولاذ المندوب بالصمت ، وعلى وجهه مسحة من التهكم والأسى والحقد سرعان ما تسرّبت إلى وجوه الطاعمين ، فوجموا وجوماً طويلاً لا يعكره سوى وقع السكاكين والشوك على الأطباق ، ومضغ المآكل فى الأفواه، ثم كلمة من هنا وكلمة من هناك :

– الحر شديد اليوم .

وثقل عليهم ظل المندوب ثقلا شديداً ، فأغضوا عن عرق صلعه وغضون وجهه وبريق عينيه إغضاءهم عن القرد المجنون بحديقة الحيوان . ولكن ما شأنه على المائدة ! ومع هذا الذباب الملحاح ؟ حتى ظنته جيهان هانم من الفلاحين فسألت سعادة الناظر متأففة :

– أتريدون الأرض أنتم ؟

– وهل الوقف ، وهو من ألف فدان ، فى حاجة إلى عشرة ؟

ونظرت سكينة هانم إلى مطلقها نصف نظرة وسألته :

– والعمدة ؟

– كلا .

– ولا الحولى ؟

– أبداً .

– ولا الصرّاف ؟

– مطلقاً .

– وفيم وقوفهم فى وجه الفلاحين ؟ !

وأجابها الشاعر وكان يضع سلة الفاكهة أمامها :

– هى قصة الغراب الذى خطف الصابون لا ليأكله ولكن ليؤذى صاحبه .

وتناولت من السلة تفاحة ، متجاهلة فكاهته – فى حين أنف الضيوف من الضحك له . إلا أن سعادة الناظر أراد الانتهاء من مشكلة هذه الأفدنة مرة واحدة لصرف ضيوفه عن سماع ما لا يحبون فى شأنها ، والانصراف إلى وسيلة جديدة تحفظ عليه سكينة بعد نجاحه فى تغليب آرائه على ترهات المتجادلين . أما الوسيلة فهى إثارة غيرتها برعاية جارته . ولئن كانت جيهان هانم قد تجاوزت الأربعين فإنها احتفظت بنبل أماراتها وتخير ألفاظها وتوزيع ابتساماتها : أميرة تعلق صورتها فى صدر البهو الكبير ، فى حين لا تصلح مطلقته الفلاحة لرفع الغبار عنها . فأبدل الطبق أمامها ونهر الشاعر ، وهو يشير إليها :

– تقدم الألوان للضيوف أولا .

وجاءه بالسلة . وعندما مدّ إليها يده ردها عنه – انتقاماً من ضيوفه

الذين لم يضحكوا لنادرته فوقعت فى الهواء أمام تماثيل ـ ثم باغته ليحرجه :

ـ نريد الطلاق .

وقهقهت المائدة :

ـ وهل هو متزوج ؟

ـ وكيف يكون ذلك !

ـ وما يصنع بزوجته ؟

ـ ومن تتزوج معتوهاً !

ـ أنا .

وعادت المائدة إلى الضحك والسخرية والغمز فأفسدت على سعادة الناظر خطته فى إثارة غيرة سكينة ، التى آثرت عليه معتوهاً أمام ضيوفه ، فتبسط معه ليسبر غورها :

ـ ومن كلفك بالطلاق ؟

ـ ها .

ـ ومتى ؟

ـ آه .

ـ ولماذا ؟



– هيه .

– لشراء الأرض ؟

– كلا .

– إذن ؟

– لوجه الله .

– لا ، هو لشراء الأرض : فإن بلغ المزاد بها ألفى جنيه فكيف تجمعونها ؟

– عندنا رب اسمه الكريم .

وتناول السلة منه فى هزة رأس – ما تقصر يد الفلاحين عنه يحيلونه على الله وأوليائه – ثم اختار مع جارته أنضج ثمراتها ، وراح يتأنق فى تقشيرها لها ، ويتأنى فى إقناع الشاعر :

– كان جد حسن أفندى يملك أربعين فداناً . وحفيده الآن يسعى وراء ثلاثة تمكنه من العمدية . فهبك اشتريت وحدك الأفدنة العشرة ، فسيأتيك يوم بزوجات وأولا د وأحفاد لا يصيب آخرهم قراريط . فكيف وأبوك يريد شراء فدان واحد ، وله زوجتان وأولاد ، ولعله يتزوج مرة ثالثة . مالك والأرض ؟ إنك شاعرنا الليلة على مصطبة العمدة ، فإياك أن تغادر القصر إلا ورجلك فى رجلنا .

وصاحت سكينة هانم :

– إذن ، هو الآخر محبوس ؟

ثم ألقت تفاحتها فى طبقها ، لئلا تظهر الرعشة التى صعدت من قلبها إلى يديها وعينيها وأذنيها ، حتى إنها لم تسمع رد سعادة الناظر عليها :

– محبوس دائماً .

فخيَّب تأكيده أمل جارته فيه فقالت له بلهجة آسرة :

– عدوهم بالأرض . . . بيعوهم من الوقف . . . أطلقوا سراحهم وأريحونا منهم . . . ألا ترونهم ! أم يعجبكم منظرهم ؟

ورفعت عينيها إلى السماء ، فقبض سعادة الناظرة يدين ، كانتا منذ لحظة تصلان إلى جميع الجهات ، وأجاب :

– الوقف ! لا سبيل إلى قيراط منه .

– الحق معك فغلته تفى بحاجة أصحابه .

– لا والله ، وقد أمرت الحولى اليوم ببيع ما تبقى من محاصيله لإرسال ثمنها برقياً إلى الريفييرة : حيث يصطاف أكثر المستحقين .

وتناول الحديث مصايف الأثرياء فى لهفة ، ثم على خجل الحسان من بقائهن بمصر ، وقد مضى من يوليو أيام .

حتى قال وكيل النيابة ، وهو ينقر الخوان بموزة فى يده ، ليصرف

نظر سكينة عن الضابط إلى ممدوح باشا ، فيتذكر وعده إياها بانتدابه أستاذاً للقانون المدنى فى كلية الحقوق :

— الوقف بنوعيه لا يباع لأنه غير قابل للانتقال شرعاً : فالخيرى ينفق دخله على المساجد والمقابر والملاجئ . والأهلى يتقاسم ريعه المنحدرون من الواقف حتى انطفاء سلالته فيعود على أعمال الخير . . .

واقتضب سعادة الناظر ثرثرته مطمئناً :

— فالله وحده مالك الوقف إن عاجلا وإن آجلا .

وصمت سكينة هانم أذنيها عنه ، فهو فى نظرها لا يفتح فمه إلا بالكذب والتلفيق والاغتياب . على أن لهجته — التى كان يعيرها بها فى قوله : يالك من فلاحة — نفذت كطعنة الخنجر إلى صميم قلبها ، وأكدت لها أنه لم يقل فى الفلاحين ما قاله إلا تعريضاً بها ، فابتسمت لممدوح باشا ابتسامة ساحرة ، ثم مالت على الوكيل — وقد بدأت مهابته تتهدم بين يديها أمام ضيوفها فتزداد معه شدة ليقضى على خصومها أو يهلك دونهم — وسألته :

— وهل هناك أوقاف كثيرة ؟

— كثيرة وغريبة : فمن الناس من أنشأ زاوية لتعويض ما تخطفه الحدآت من الغلمان ، وغيره خص جواده بطابق من عمارته ، وثمت شامى ترك لشيخ إحدى التكايا ربع مليون جنيه لأنه سقاه ماء اللفت فشفى !

وردّ الضابط الكمثراة عن فمه مستدركا :

— أراك نسيت الكلاب الضالة . ولكننى لم أسمعك تذكر واحداً وقف شيئاً على الفلاحين .

وسبقه سعادة الناظر إلى الجواب :

— الفلاحون ؟ إنهم يعيشون فى أرضنا بغير عناء .

— فى معظم أرض مصر لأنها ضرب من الوقف : هو يستبدل وهى تنتقل من يد غنية إلى يد أغنى منها . كل ذلك وأيدى فلاحيها صفر منها . فما أسعدهم !

وهزّ سعادة الناظر كتفيه على استخفاف ومضمض — فهو من أولئك الذين لا يشقون طريقهم فى الحياة وإنما يقبلون عليه مع الناس بالكلام والطعام والشراب ، مطمئنين إلى رصيدهم فى مصرف الحظ وغباء المتساقين وحاجة المتوسطين — ثم قال وكأنه يلقى قطعة نقد ملكاً أو كتابة :

— ماذا تريدون على وجه الدقة : حل الوقف ؟ دونكم الدين . توزيع الأراضى ؟ جُرّب فيما مضى ولم نفد منه . فما بالكم بتوزيع نحو ستة ملايين فدان ، لا تفى غلاتها حاجة ثلاثة عشر مليوناً من الفلاحين ، على عشرين مليوناً ؟

وأردف حسن بك ليثبت وجوده لابن عمه الضابط فيقف عند حد من وقاحته :

– بل الرأى أن يحسن الملاك أرضهم وتصلح الحكومة البور . . .

والتفت إلى المندوب مستفهماً عن مساحته – وقدره خمس المسطح – ولما رآه يتفرس فى ذقنه المزدوج تابع . . .

– وتوزعه على المعوزين . أما الآخرون فيعملون فى الصناعة .

فعبث الوكيل بشعره الأشعث :

– وأين المناجم ؟

– موجودة لمَّا يكشف عنها بعد .

وخذله سعادة الناظر بصوت كجرى القطة على المعزف :

– وفيمَ التعب ؟ احتلوا لنا بلداً نوزع أرضه على فلاحيكم ونستخدم مناجمه فى صناعتكم .

وسحب الوكيل يده من شعره مستعجلا :

– وأى بلد ! ثلاثة أرباع سكان العالم يشكون قلة الغذاء لمحل الأرض ونفاد مواردها ، أليس الأمر كذلك يا حضرة الدكتور ؟

وتصامّ المندوب عنه مع أن الجواب على طرف لسانه : سيهتدى العلم إلى طاقات فى الشمس والريح والبحر والصحراء يعم رخاؤها العالم .

ووخزه سعادة الناظر فى صمته ، متهكماً على قصر لسانه بعد استطالته :

– لم يبق أمامكم سوى المريخ فهيئًا .

ـ لن أذهب إليه على حمار .

ـ فليختر لك فلاحوك شيئاً إن كرهت حميرهم .

ـ من الطين والجاموسة والفأس ؟ ! إن النفر القليل منهم الذى قدر له العمل فى الميادين الدولية تفوق فيه بحيث ألقى عليها سمات مصر الخالدة . فلو أوتى الخمسة عشر مليوناً مثل حظه . . .

ـ لوصلنا إلى المريخ حفاة .

ـ كلما قصدنا الجد اختصرتموه بالهزل . أنسيتم أن ثروة الأمة فى إمكانية إنتاج أفراد ممتازين تزدهر بهم ، لا فى زيادة تعدادها بملايين المقلدين والمقتبسين والحاملين ؟ فماذا صنعتم لاكتشاف منجم المواهب الإنسانية بين الفلاحين ؟

وتبادل الضيوف النظرات وأفكرت سكينة هانم : لماذا لا يستخدم الوكيل موهبته وفنه وعلمه فى خدمة الفلاحين أقارب أمها ؟ بدل التضييق عليهم بها ! فعل الإقطاعيين من أمثال أبيها ؟ ثم استجداء بنتها وظيفة عن طريق ممدوح باشا ، متناسياً ثمنها ، كأنما يريدها أداة أو سلعة أو سبية . ونظرت إليه فلم تفرقه عن الكأس والشجر وسعادة الناظر ، إلا فى صورة سلبية ، مستقبحة ، كان الحب قد جعلها إيجابية مهيبة ، فاحتضنت المندوب بعينيها وصاحت :

ـ معك حق يا دكتور .

وجحظت عينا الوكيل التعبتان ، وبرقت أسارير سعادة الناظر الباهتة ، وبهت الضيوف . على أن المندوب لم يؤخذ بنظرتها إذ خلت مما كانت تودعها ساعة تلين لممدوح باشا ، وتتهالك على الضابط ، وتعجب حتى بالشاعر . فماذا بقى له ؟ لا شىء . لقد انجرف فى تيار الجدل والخصومة إلى حيث الثلاثين جنيهاً : مرتّبه الشهرى . وبوسع أى واحد من هؤلاء حرمانه منه ، ومنع نشر أطروحته بالعربية ، وإلقاؤه على الرصيف . فى حين يستقرون وأشباههم فوق ثرواتهم ومناصبهم وألقابهم ، فضحك ضحكة مغتصبة ، ثم استلقى على كرسيه واستأنف :

ــ ما صنعتم من أجلهم شيئاً ولا عوضتم مصر عنهم فى شىء . فهل فككتم رموز حضارتها لتترددوا على فندق سميراميس ؟ إن لدينا . . .

وضاقت السيدة نجلاء به فمدت نحوه يدأ مستطيلة بضة وصرخت فيه :

ــ أبالع أنت محطة إذاعة سباب اليوم ؟ !

ثم لوت عنه ، لتستعيد مع صديقاتها ، من خوان إلى خوان ، ذكريات معارض الأزياء الباريسية فى فندق سميراميس .

وآلمه بريق السوار المرصع بمعصمها أشد من ثرثرتهن ، فأغمض دونه عينيه ، وانبرى لهن :

ــ ولكم عندنا من بيوت اقفرت من الصحة والنظافة والبهجة ! وكم من مستشفيات وملاجئ ومراكز اجتماعية افتقرت إلى النشاط والرعاية

والرحمة ! فما بالكن لو طلب منكن القيام بمثل هذه التضحيات لغير مواطنيكن ؟ وخارج مصر ؟ وبلا أجر ؟

فلما صمتن خاف ألا يتسنى له إتمام فكرته الأولى فأسرع :

– أما ما لدينا من مجهر وقلم ونوطة ومرسم وإزميل فلا سبيل إلى عرض نتاجه فى معارض دولية ، أو مبادلتها إياه عيناً لا شراء بهذه العملة المزيّفة .

– مزيّفة ! . . .

– أجل : لأنكم ، وأنتم الذين تملكونها لا تتعبون فى تحصيلها .

وقدم الشاعر بالقهوة ، وقدم للمندوب أول فناجينها ، بين تغامز الحسان عليه وقول سعادة الناظر له :

– لا حل إذن إلا بحل الأوقاف وتوزيع الأرض . فكيف يكون ذلك؟

سأله وهو يطوف باللفائف على ضيوف صامتين تكاد التخمة التى بلّدتهم تعلى زفيرهم على رقرقة البركة وهديل الحمام ومناغاة طوسون بالشرفة . وسرعان ما ارتد إلى مجلسه بعقبة كأداء – لم تخطر ببال الوكيل الذى أشاع فى المدة الأخيرة بين المترددين على الحزب : أنه عقله المفكر وقلمه المعبّر ورائده إلى الحكم – فألقاها فى وجه المندوب الساهم :

– يوم تتوفر فى خزانة الدولة ملايين الجنيهات نحل الأوقاف وننزع الملكية .

فبرقت أسارير الضيوف ، لاعتقادهم بأن ذلك اليوم لن تشرق شمسه على أملاكهم وقصورهم وأموالهم ، ما دام بينهم زعماء تدخرهم السراى لكبح جماح المشاغبين ساعة تشاء ؛ واطمأنت الحسان إلى ما لديهن من تحف وحلى وحلل ، إلا سكينة هانم التى ظنت سكوت الضابط والمندوب انخذالا أشفقت عليهما منه — بعد أن تحولت المناقشة حول مستقبل الأمة ، فى نظرها ، إلى مساجلة يجب أن ينتصرا فيها على سعادة الناظر والوكيل وحسن بك ، وأقله أن أن يكسبا فى النقط — فغمغمت عفو الخاطر :

— تدفع الدولة أثمانها بسعرها الأساسى .

ولزما الصمت . . .

فأسرعت السيدة نجلاء بإبعاد ساقها عن المندوب — ولم تخلق للحب أكثر منها للتجسس ، تساعدها عليه نحافة قوام ولطافة خضاب ورقة ثوب . أما وقد حفظت أقوال المندوب فإنها تريد نكات تكشف بها عن جمال أسنانها — والتطلع إلى الضابط وسؤال سعادة الناظر :

— ترى ! بكم اشترى الواقف هذه الألف من الأفدنة ؟

وليخفى ارتباكه رمق مطلقته بنظرة عتاب فرآها تبتسم له ابتسامة فى أطرافها سخرية ، ثم تبوح بالسر :

— قيل إن جدته — ولست أدرى صلة نسب أمى بها — كانت

معتوقة أحد الولاة ، فأقطعها هذه الأرض . ولما آلت إليه خاف مصادرة الحكام لها وإسراف ورثته فيها فوقفها عليهم .

وضحك الضابط من شفة الوكيل المندلقة :

– أحد الولاة ! من كم سنة ؟

– وماله ! هناك أوقاف من ألف سنة .

– ما شاء الله ، تكفى المرء ولادته من صلب واقف ثرى ليفتح عينيه على قصور وحشم ، وينعم بالعلم والألقاب ، ويطلب اللهو فى أقطار العالم . ثم يغمضهما وقد ضمن لسلالته جميع تلك الامتيازات على شكل أوسع وبصورة أجمل ولآجال أطول .

ولكزت السيدة نجلاء جارها مشيرة إلى سعادة الناظر – المستغرق فى حلم لذيذ وهو يتشوف ابنه طوسون بالشرفة – فاستجاب لها ليجرها معه إلى الرصيف بقوله :

– وما تكلف سلالته نفسها ، لقاء ذلك ، عملا ما من عضلاتها أو قلوبها أو عقولها .

وأيدته :

– حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

فتعالت الأصوات من كل جهة :

– وهو خير الوارثين :

وبعد أن رشف الضابط من فنجانه البارد رشفة بلغ آخر فكرته :

– وتبعث المعتوقة مع سلالات الفلاحين الذين وقفهم حفيدها عليها .

فلمعت أسنان السيدة نجلاء اللؤلؤية ، ومن ورائها ضحكات حسان كشفن بها عن نفسيات عارية ، إلا مما على أجسادهن من أناقة وترف ودل . . . شوّهت بعضها قطرات قهوة سائلة ودخان لفائف معقودة فى الجو وتقطيب ضيوف صفر حمر ، مهذبين ، يمسحون العرق عن جباههم ، آسفين لهذا الكلام فى غير موضعه ، وسماعه وحده يؤدى بهم إلى حيث لا يعلمون . . . ومال حسن بك على ممدوح باشا – من وراء ابنته القاعدة وكأنها تحتضن فراخاً بالرغم من عنسها ، وكان يمنّى ابن عمه بها لقاء نقله إلى الحرس الملكى – مفسراً له قول الضابط :

– ما زال فتى غرّاً ، وقد درس الحقوق أخيراً ، فكوّن منه آراء قصيرة ، سريعة ، جذابة ، لبهر النساء . ألا تراه محط أنظارهن ؟

أجل . . . ومحط نظر الوكيل الذى شعر بمزاحمة الضابط له على قلب سكينة ، وبالمشاكل التى تخلقها حولها من أجله على غير علم بها ، وبقطع سعادة الناظر عليه مجال القول ليفسحه للمندوب والضابط . فما يكون شأنه معه لو اشترك فى الوزارة الجديدة ؟ لا بد من تأييد الوضع الراهن ، أمام ممدوح باشا ، وبحجج قانونية لا بمهاترات سعادة الناظر .

لذلك رفع نظارته السميكة عن عينيه الهازئتين ، وراح ينقر بطرفها على الخوان مستنكراً :

— هب أن صاحب الوقف أو أى مالك قد باع أرضه ولم يوقفها على أبنائه أو يخلفها لهم . ألم يكن حراً فى التصرف فى ثمنها ؟ كأن يبنى به عمارة ويهدمها ، أو يبدده على الغوانى والخمر والميسر ، أو يودعه أحد المصارف حتى اليوم . أتستطيع أنت بدينك وحضارتك وقوانينك سحبه من المصرف ؟ . . .

وسانده سعادة الناظر :

— أبداً ، هو حقه .

واشتد الغضب بالضابط حتى كاد يختنق ، لولا أنه ركز مرفقيه على الخوان ، وأجاب :

— وملايين الكادحين ! أفلا يساوى ذكاؤهم وعرقهم وتقتيرهم ، خلال مئات السنين ، غارة قبيلة ونخوة بطل وليلة حظوة ؟

وتلقّى سعادة الناظر اللطمة عن الوكيل :

— وما قيمة عملهم بعد قيام آلة صغيرة مقام الآلاف من سواعدهم؟

وطفق حسن بك يحتال على زحزحة بنيقته وفك حزامه ولو استطاع لحل رباط حذائه ، وابن عمه لا يلتفت إليه وإنما يتابع فكرته :

— أما الدين والحضارة والقوانين فأنا أنزهها عن أن تكون أسلاكاً

لتسييج قبر يضم عقلية واقف أو مورث من القرون الوسطى ، تفرض إرادته على ملايين الأحياء .

وفرح الوكيل بالضابط ، يقع هو الآخر تحت طائلة القانون ، فاستزاده :

— وهكذا تهدرون حريات الناس ، وتعطلون حقوق الحكومة ، وتنشرون الفوضى .

وكان المندوب فى تلك اللحظة قد عرف أن جارته غير ضرورية لسعادته على الرصيف ، ما دام يجهل موضع الطيب من جسدها فأين ضمائر هؤلاء ؟ لابدّ من النفاذ إليها ولو كلفه ذلك حبلا فى عنقه :

— أو تظن ذلك ؟ حقوق الناس لم تهبط عليهم منحة من السماء ، أو تولد معهم على أسرة أمهاتهم ، وإنما خلقتها فيهم قابليتهم لها وكفاحهم فى سبيلها ، لتنسخ حقوق الملوك الإلهية وملكية الإقطاعيين واسترقاق العبيد وسيطرة المال وفوضى الجماهير . فليس هناك حقوق مطلقة وملزمة ونهائية ، وإنما حقوق الناس معناها جميع الناس فى حدود واجباتهم نحو أسرهم ومجتمعهم والعالم ، فإن أهمل أحدهم أو أساء عاقبه القانون .

وشعر الوكيل بانخذاله ، على الرغم من تشجيع سعادة الناظر له وتطلع الضيوف إليه وسكون النساء من حوله ، ولم يجد مخرجاً إلا بمسح نظارته وإعادتها إلى عينيه الكليلتين :

– ونحن نطبق القوانين .

– وضمائركم ؟ !

وراح الضابط يحشو غليونه مغمغما وكأنه يخاطب نفسه :

– ازدواج الضمير علتنا : فبالرغم مما لدينا من أحزاب وصحافة وجامعات ما زال الفلاحون يعيشون مأساة لا مثيل لها فى فظاعتها واتساعها واستمرارها .

وعاد سعادة الناظر إلى سؤاله :

– وما تقترح ؟ . . . لعلنى مشترك فى الوزارة الجديدة فأنفذه لك .

– كفالة حقوقهم الموقوفة والمعطلة والمهددة .

– وكيف يكون ذلك ؟

– هبنا فى حرب : ألا نسلم بخراب بيوتنا ! وضياع ثرواتنا ! وفقد حياتنا ! لإنقاذ أمتنا ؟ !

– وإن عجزنا كغيرنا ؟

– لا مفر لنا . . .

واشرأبت الأعناق وجحظت الأبصار وأصغت الأسماع . . .

– . . . من مقاضاتكم جميعاً أمام محكمة دولية .

وهمدوا جميعاً إلا الوكيل الذى لم يستطع مغالبة ابتهاجه بالضابط ، وقد أعاده إلى ميدانه ، فأشعل سيجاراً ورد دعواه بقوله :

— القانون الدولى لا يتدخل إلا فى قضايا العنصر واللغة والدين لئلا يقع على الإنسان حيف بسببها .

وتلفت الوكيل حوله مستنصراً ، تلفت الضابط مستنجداً، تلفت الشاعر من قبل مسترحماً ، فإذا الحسان يكشفن عن طوالعهن فى فناجين القهوة ، والرجال حولهن عيون على ترائبهن وأكتافهن وظهورهن ، والمندوب ينفخ دخان لفافته فى السماء ، وحسن بك يقلم أظافره بأسنانه ، وممدوح باشا يعد أقراط الحسان ثم نجوم الضباط ثم أزرار الآخرين حتى بلغ سعادة الناظر . . .

وسعادة الناظر مشغول عن ضيوفه بتخيل ابنه طوسون فى مهده ، وخوفه عليه من استقرار الوكيل فى سرير مطلقته زوجاً شرعياً ، ترزق منه بنين وبنات يزاحمونه على نصيبه فى الوقف ويضطرونه إلى كسب عيشه بعرق جبينه كعامة الشعب . . . ولعلها تحتفظ به وتنسبه إليها وتحرمه منه كما وقع لصديقه القاضى مع زوجته الثرية . فماذا بقى لسعادة الناظر من دنياه : نظارة الوقف ؟ ولكنه لا يملك منه شيئاً كبيراً يوطده فى مركزه . كرامة محتده ؟ ولكن هؤلاء الفتيان يعيبونه عليه وكأنه من السوقة . سياسة حزبه ؟ ولكنه قضى فيه خمس سنوات ولم يتول الحكم ، حتى إنه طلق زوجته من أجله وما يجد بعدها امرأة فى غناها ترضى به زوجاً وقد نيف على الخمسين . . . بقى له حظه مع مطلقته . وخالسها

النظر فألفاها ـ وقد ضغطت حمالة الحرير على قلبها ، وتجمعت نظرات المعجبين حولها ، بين ثناء عليها وإهانة لها تتنفس فى سرعة تخفق لها أهدابها فوق عينيها الساهمتين خفق أجنحة الفراش على الزهر حولها : لقد كان عندها عن الحب ، من القصص ، فكرة لم يحققها لها هؤلاء على الرغم من التبديل فيهم والتعديل والاستزادة . فهل يكون الوكيل خيراً منهم ؟ ربما . ولكنها تتعب من السكن دائماً وأبداً فى جلدها الواحد ، وهى تحب أن تخرج منه عبدة ليلة وملكة ليلة ، وزوجة يوماً ، وأمًّا آخر . . .

وكان الضيوف يشمون فيها رائحة الأنوثة العارمة الضارية ، ويعانون نصباً شديداً فى كبح جماحهم عنها ، ولو أن واحداً منهم جرؤ عليها لوقف سعادة الناظر فيهم هاتفاً : تركنا الأرض للفلاحين ، وأطلقنا سراحهم ، وأخرجنا مرجان من المكتب . ولكن ما داموا جبناء ، أذلاء ، سخفاء ، يكتفون منها بتطرية النظرات وسيل اللعاب ، وتلمظ الشفاه ، فسعادته لا يملك أمامها سوى توريط الوكيل فى التحقيق ، ليخرج من الركود المظلم الذى وضعته فيه أشهراً إلى تبين حقيقة نواياها برفق وحذر وحكمة خمسة : هو ، ومطلقته المجنونة ، والوكيل الأرعن ، والشاعر الأبله ، وطوسون المسكين !

ونهض سعادة الناظر يقول لضيوفه مشيراً إلى الضابط :

– فى نظر صاحبنا من لا يعمل لا يملك ولا يطعم . أما وقد طعمنا وشربنا فتعالوا نقل ، قبل أن يصدر أمره بحرماننا من المأوى .

وما فتح الضابط فمه للجواب ، ولكن للتثاؤب . إلا أن حسن بك خرج حلمه عن جسده الضخم الريّان فوقف وقفة عسكرية ونهر ابن عمه :

– وما يعنينا نحن ؟ نحن نؤمر فنطيع . ألم تسمع سعادة الناظر يدعونا ؟ هلمّ .

وتأبط سعادة الناظر ذراع الضابط ، فى اتجاه مطلقته ، متلطفاً معه ، هامساً فى أذنه :

– لن أدعك بعد اليوم للفلاحين – وهو يخلط بينه وبين المندوب – فقد عدت إلينا من سوقهم بثورة وقانا الله شرها .

وأطبق الضابط فمه لئلا تنذلق على لسانه فى سهولة ويسر تلك الكلمة الرهيبة التى تعيد إلى الفلاحين حقوقهم : الثورة .

فى حين تركه سعادة الناظر إلى ممدوح باشا – المطوّح يديه فى الهواء لملء ذلك الأنف المعقوف المزكوم من رائحة ابنته العانس – وبادره :

– مالك لم تبد رأياً فى كل ذلك ؟ !

عندئذ وجد الباشا مجال القول واسعاً – لأنه لا يحسنه إلا إذا أسره

فى أذن محدثه وربت على كتفه وأصلح له ياقته ــ فأجاب :

ــ فتيان يطلقون المدى لغرائزهم وألسنتهم وسوقهم، فلا قيمة لهم ولا خوف منهم . . .

ــ ألا علاقة لهم بالحركة ؟ فإن هم أذاعوا مبادئها ، ثم اختفوا على أثرها !

ــ لطالتهم يدى ولو عادوا إلى بطون أمهاتهم .

ــ لست أدرى . . .

ــ كيف لا تدرى ؟ وهل صدقت أن نفراً من صغار الضباط يستطيعون القيام بانقلاب ! ومن أجل من ؟

وأشار إلى مجموعات الفلاحين تحت الحنايا والشجر والعراء ، ضاعت بين جلابيبهم الداكنة المهلهلة الفضفاضة سماتهم الباهتة وحركاتهم البطيئة وكلماتهم القليلة ، وقد اكتفوا من عالمهم برفع لبدهم وفتح صداراتهم وذب الذباب عنهم وبصق التراب من أفواههم ، وفى الجو صورة منهم : راكدة ، بليدة ، كريهة .

هرب ممدوح باشا بسعادة الناظر منها إلى الأسرّة الوثيرة فى القصر هرب الضيوف من قبلهما .

الفصل الرابع

صحا وكيل النيابة من قيلولته الطويلة ، المجهدة ، المتقطعة ، على جلبة فيها صراخ وصياح وهتاف . فتناول نظارته وذهب يغتسل ، وهناك أمام المرآة وقف متفرساً فى صورته : لو أنه وضع على رأسه لبدة وفوق كتفيه جلباباً وظل كما هو الآن حافياً ، لضلَّ نفسه بين أولئك الفلاحين الذين يكبرونه ويهابونه هيبة السلاطين وينتظرون تحقيقه معهم انتظار القدر . وضحك منهم وهو يتطيَّب ويرتدى حلته ، ثم خرج باحثاً عن مصدر تلك الجلبة التى هدأت فجأة . فهل كانت فى البهو؟ لا ، فهناك سعادة الناظر وجيهان هانم والسيد سليم والعانس ، حول نضد أخضر يلعبون البريدج . على الطنف؟ ربما ، لتناوب ممدوح باشا وحسن بك والضابط والمندوب سرد النوادر البذيئة همساً ، ثم القهقهة لها عالياً . أم عند البركة؟ أجل ، فقد جمعت سكينة هانم بقية ضيوفها حول حاو : يذبح وحيده ويسيل دمه ، بين سمعهم وبصرهم ، ثم يهمس فى أذنه ببعض أحاج فإذا هو حى يسعى . وتهرع سكينة هانم إلى وحيدها طوسون ، فوق كتف الشاعر بجوار مربيته ، فزعة ، فيبتسم الحاوى لها ، ثم يخرج من جرابه فروجاً واحداً ، قد اشتد جناحاه ويدور به على

المتفرجين يتحسسونه ويتفحصونه ، وما هو إلا أن يحمد الله ويصلى على نبيه معهم ، ثم يشد بيديه كلتا رجلى الفروج فإذا هما قد انفصلتا عن فروجين كاملين ، بين تصفيق الفلاحين — المبعدين عن الضيوف — وصياحهم . ثم يرى الحسان قطعة نقد من ذات العشرين ويتنقل بها فى يده المرفوعة ، متمتماً ببعض الأسرار ، ثم يقف فجأة صائحاً فى المشاهدين يثير اهتمامهم جميعاً ، ويفتح يده فإذا بقطعة النقد قد اختفت بقوة سحره واستقرت فى كم السيدة نجلاء المأخوذة ، فراح يستخرجها منه هى بعينها بين هتاف الرجال ودهش الحسان من تلك السارقة التى لا تدرى هى نفسها متى ولا كيف سرقت . . . وإنما اهتدت فقط إلى الوسائل التى استخدمتها سكينة هانم فى خطف الوكيل من جيهان هانم .

وكان الوكيل يتنقل بينهم فى ذلك الجو الهادئ ، المرح ، الهازج ، فيعاوده إحساسه بأضداده ! من تغلُّب الصاغ والمندوب عليه ، وغضب سعادة الناظر منه ، وازدراء ممدوح باشا له ، ثم انصراف سكينة هانم عنه : أشبه بالفلاح الذى طالعته به المرآة ، فكيف خرج له هؤلاء المنافسون فجأة ، وعلى غير انتظار ، وفى نزهة ؟ مع أنهم كانوا يعيشون متجاورين فى حى واحد ، ويقيم لأكثرهم سعادة الناظر مآدب ما بين يوم وآخر ، ويقبلون عليه بأصحابهم — ولا سيما بعد ترشيحه للوزارة — فإذا لمح الوكيل مرجان تذكر السلطة الوحيدة التى ما زالت فى يده ، فقصد

المأمور وقال له متصنعاً الاستنكار :

ـ لم أر هؤلاء الفلاحين يطعمون أو يسقون .

ـ أو كنت تتوقع سعادتك أن يدعوا إلى الغداء معنا ؟

ـ كلا ، ولكن أعمالهم معطلة وأهلهم يفتقدونهم .

ـ أليس فناء القصر خيراً من السجن ؟

ـ وهل سيسجنون جميعاً ! فعلام ترك الأبرياء منهم تحت وطأة التهمة ؟

ـ أخشى ألا يوافق سعادة الناظر على التحقيق قبل القبض على عبد الرازق وعوف وربما القيسى .

ـ وإن لم تقبضوا عليهم ؟

ـ أمامنا ثلاثة أيام .

ـ تعال نر .

وصعد الوكيل بالمأمور إلى البهو ، ودنا من سعادة الناظر مستأذناً :

ـ لقد ابترد الجو .

ـ تريد التحقيق .

ـ إن أمرت .

وفرح سعادة الناظر بتعجله الوقوع فى الشرك الذى نصبه له . فى حين يقوم هو بالقصر مع ضيوفه على حراسة طوسون من اعتداء

القيسي . ثم نظر إلى من حوله ، وكلم مخاطبه معتذراً بهم :

ــ ولكنك ستذهب إلى البيدر وحدك يا صاح .

ــ ما إخالني انتهي من الفلاحين في ساعات .

ــ وماله ! تناولهم على دفعات .

ثم أشار على الحولي :

ــ أرسل في طلب الشاعر من المطبخ .

ثم أردف :

ــ فإن اتسع وقتي لحقت بك .

ــ لا أحب إزعاج . . .

ولم يسمعه فقد كان يخاطب الشاعر بمثل لهجته :

ــ هذه الورقة لأبيك . فقل له أن يقابلني . وإن لم يكن موجوداً فأحضره من تحت الأرض .

وأعاد الوكيل :

ــ وهل نطلق سراح الأبرياء منهم مؤقتاً ، على ذمة التحقيق .

ــ ولماذا ؟

ــ لتضييع فرصة المزاد على الفلاحين .

ــ حقق معهم أولا ، ثم افعل بهم ما يبدو لك .

— وإن ثبتت . . .

ومال سعادة الناظر عن الوكيل إلى الشاعر ، وعندما رأى أن الورقة ما زالت بيمينه ويسراه على عصاه نهره :

— ألم تسمع ؟

— حاضر يا سعادة البك .

— مالك ترتبك هكذا ؟ ضع الورقة فى جيبك .

— إن شاء الله .

وكيف يضعها وفى جيبه قطعة حلوى — عيش السراى — دسّها خفية عن الطاهى لشقيقته خديجة .

— إياك أن تنسى موعدنا الليلة ، على مصطبة العمدة .

— من عينى الاثنتين يا سعادة البك .

ودار على نفسه لينصرف فاستوقفه الوكيل :

— الحق بالفلاحين .

وابتسم سعادة الناظر ابتسامة معناها : أو تظنه قادراً على إحراق البيلمر ؟

بينما مدّ الوكيل يده علامة : من يدرى ؟ !

— وأبوه إذن ؟

— ربّما .

— وجدتَه ؟

— وما يمنع .

— عظيم . أعدوا سيارة .

واعتذر المندوب — وكان قد انضم مع الضابط إليهم ، من حيث لا يشعرون ، وفهم من استبقاء الوكيل للشاعر أنه مبيت للفلاحين أمراً ، لعلّه يصرفه عنه بالحسنى — قائلا :

— لا داعى للسيارة .

وأعقبه الضابط :

— نزهة على الأقدام بين الحقول خير منها .

— أو تصحبه أنت ؟

— ساعة ثم أعود إليكم .

والحقيقة أنه كان يود الاختلاء بالمندوب لاستيضاحه بعض نقاط خفيت عنه في مبادئ الحركات الوطنية .

وضاق الوكيل بهذين الضيفين الثقيلين المتطفلين . إلا أن سعادة الناظر اغتنم وجودهما مع الوكيل ليشهدا عليه . فأفصح عن غير قصد بما يدور بخاطره :

— من الأفضل لك أن يصحباك ، لئلا يقع عليك من الفلاحين

اعتداء ، ألا تراهم قد هددوا السوق بالقيسي ؟ !

وهكذا سار الوكيل بين صديقيه اللدودين ، وحولهم المأمور والعمدة والحولى والصراف ، فى حين أمر شيخ الخفراء رجاله فساقوا الفلاحين أمامهم إلى البيدر .

ساروا وقد أحنى التعب ظهورهم ، وأشحب العوز سحنهم ، وخشن الجهل أصواتهم ، حتى فى كلامهم عن القاهرة ، انتقاصاً لشأن الوكيل وأصحابه — والسخرية من خصائص المستضعفين — . وكان حسن أفندى يقول :

— الله ، الله على الجواهر الثمينة فى شارع سليمان باشا ، تحت متناول كل يد ، لولا زجاج الواجهات وزحمة المارة ووقوف العساكر عند مفترق الطرق .

ويسأله أبو لبدة :

— وأين النشالون ؟ إنهم يقسمون القاهرة مناطق ، إذا تجاوزها المرء سليم الجيب باعه النشال إلى زميل له ، كما وقع لابن العمدة .

وعرّض الدرويش بالمأذون ليكتم اتفاقه معه على الشراء :

— وفى حى الخليفة : حيث مساجد الله وأضرحة أوليائه ، يخطف الأولاد ويرهنون فى الأرياف . ألم أفك الأستاذ جمعة فى المنصورة ؟

وردّ عليه المأذون ساخراً من حفيده :

– من أجل هذا خشى الشاعر إتمام دراسته بالأزهر ، ولكنه لم يسلم من روض الفرج . فأول مرة أرسله إليه عبد الرازق بمركب بطيخ ، قابله بائع زلابية مرحباً : أهلا بشيخ العرب ، تفضل كل لك واحدة . – متشكر . – والله لأنت آكل . وعندما أكل الأولى أقسم على الثانية . فإذا انصرف شاكراً ، أمسك بجلبابه ولم يفلته إلا على يد العسكرى وبعلبة لفائف ومع بضع صفعات .

وضحكوا حتى تعبوا ، بيد أن مخاوفهم لم تذهب ، فطفقوا يوزعونها على الفلاحين فى الحقول حولهم : وقد أقبلوا عليها وراء أبى قردان ، عراة الرؤوس ، مكشوفى الأذرع ، حفاة الأقدام ، يعملون فيها صرفاً ورياً وجنياً ،لا خجلا من البطالة أو انصرافاً عن الشر أو توكيداً لقيمتهم ، وإنما لأنهم نشأوا بينها وعاشوا منها ولم يحاولوا الارتزاق بسواها . وهكذا استأنفوا عمل أجدادهم من غير تجديد فى قواعده واقتضابه وتحسينه . وعكست هى بدورها صورتهم عليها : مسحة من السذاجة والفتور والجفاف .

وأهاجت رؤية الفلاحين على الأرض شجون الشاعر فأخذ يدندن بأغنية :

لا تكتر لهمّـــك ، ما قدر يكون
نحن والخــلائق كلنــا عبيد

والإله فينـــا يفعـــل ما يريد
همك واهتمامك ، ويحك ما يفيد

• • •

لا تكثر لهمــك ، ما قدر يكون

وضاق الضابط بصوت الشاعر ، لقنوطه من الاعتماد على الفلاحين في القيام بحركة ما ، فألقى يده على كتف المندوب وقال له آسفاً :

– صدق سعادة الناظر في أنه لو كان لدينا فلاحو الغرب . . .

وأجابه الوكيل :

– وهل يشك عاقل في ذلك ؟

ثم التفت إلى المندوب العنيد ، من فوق كتف الضابط المستسلم ، وأردف :

– وأنت يا دكتور ، أما زلت عند رأيك ؟

– . . .

– الزمان والمكان ، يا صاح ، صورة الحياة الاجتماعية وإطارها ، ونحن وراءنا – ما دمت تحب الأرقام – مئات الأجيال ، وأمامنا آلاف القرى ، يقيم فيها ملايين الفلاحين . فكيف يعيشون ؟ على الفطرة بغرائز حب البقاء والجنس والغذاء . فما رأيك ؟

وتجاهله المندوب ليرد على الضابط مشجعاً :

— وهل صدَّقت سعادة الناظر ؟ لو عاش فلاحو أرقى الأمم على نظام الريف عندنا لانحطوا إلى درك لم يبلغه فلاحونا فى يوم من الأيام . ذلك أن جميع تلك الأمم عرفت البداوة فى ماضيها ، وبوسعك إعادتها إليها خلال جيل من الاضطراب والإكراه والاستبداد .

ثم استطرد ، ومنشته فى اتجاه الوكيل ، مستنكراً :

— كذلك بوسعك ترقية أية أمة من بداوتها إلى حضارة عصرنا ، عن طريق العلم ، فى نصف قرن .

— وهذه الحضارة ؟

— تقوم على العلم تطبيقاً وتخصصاً وتنظيماً : من الزراعة إلى القوانين ، فى سبيل تأمين القوة والرفاهية والعدل للفرد والشعب والإنسانية .

— كل هذا فى نصف قرن ؟

— لك باليابان خير شاهد .

ورفع الضابط عينيه نحو السماء مسترحماً :

— اللهمَّ نصف قرن لمصر .

وقهقه الوكيل ، وهو يمسح نظارته بمنديله ، ثم علق مستهزئاً :

— رجل واحد بدل الحياة فى اليابان ، والأزمات مكنت للحياة النيابية الإنجليزية ، والأمطار ساعدت على الثورة الفرنسية ، والبارود وزع الإقطاعيات بأوربا ، أما فى مصر . . .

وطأطأ الضابط رأسه ملجلجاً :

— . . . فقد توفّرت جميعها لنا دون أن تؤدى إلى حركة تسفر عن إصلاح .

— ويا للأسف .

— وأنت الآخر اقتنعت ؟

— بالرغم منى . لأن الأفكار ، وهى أقوى من جميع ما ذكرت ، انحصرت عندنا فى جماعة تنكرت لرسالتها : فهى تعيش أجسامها بمخترعات عصرنا وعقولها وراء مئات السنين من مذاهب أوائلنا ، ومن لم يشاركها فيها رمته بالزندقة والشعوبية والكفر .

— والنتيجة واحدة لخصها سعد زغلول ، على فراش النزع ، بقوله : لا فائدة !

— صحيح .

— صحيح .

ردّدها الضابط مموّهاً عما فى خاطره من أسرار : جماعة من صغار الضباط مؤمنة ، مثقفة ، منطلقة ، تفكر فى إبداع مستقبل لمصر أبعد من ساعتها وأرضها والمألوف من حلولها التى أوجدتها أكثرية تغط فى نومها وأقلية تغنى بمنافعها . ثم هتف الضابط من حيث لا يدرى :

— فإن وجدت .

— من هى ؟

– هذه الجماعة .

وثبط الوكيل همته :

– أفسدها الرأى العام الذى يعكس الوقائع ويأبى التزحزح عنها .

ولكن المندوب عارضه :

– وهل بوسعنا عمل كل شىء بأنفسنا ! إننا مستعدون لتحقيق آرائها تسليمنا للشيخ يشرح شعائرنا والطبيب يعالج مرضانا والمهندس يبنى بيوتنا .

– الحمد لله .

والتفت الوكيل إلى الضابط مستفسراً فأوضح :

– الحمد لله على بلوغنا البيدر .

* * *

بلغ الفلاحون البيدر –وهو أرض منبسطة مقسمة إلى مربعات متراصة مغطاة بروث البقر والتراب – وما صفهم الخفراء فيه وأحاطوا بهم حتى تهافت عليهم القرويون من الحقول ، متجمعين حولهم تجمع السمك حول الشص ، فى انتظار وقوع التهمة المسلطة فوق الرؤوس على فلاح فيتفرقون .

إلا أن الوكيل تهيبهم فقصد النورج – وقد سلم من الحريق – فوقف فى ظله ، متشاغلا عما حوله بتجفيف عرقه وترتيب شعره وتنظيف

نظارته ، وكأنه فى انتظار أمر ما .

وهكذا لم يبق أمام الفلاحين سوى استراق النظر إلى أبنائهم فى حقول القطن الشاسعة ، فيرونهم يقومون بمثل ما قاموا به يوم كانوا فى سنهم : من نزع الأعشاب البرية والبراعم الطرفية عن ذلك الزرع الذى أنصبهم حرثه مرات ثلاثاً وبذره فى كل شبر أرض ست بذور إلى عشر . ثم تصوروا كيف سيهبون بين أواخر أغسطس ومعظم سبتمبر تحت إمرة الخولى صفوفاً صفوفاً ، لتجريد كل شجيرة من باقاتها البيضاء ، فى سرعة وحذر ، على أهازيج مزاجها أفراح حياتهم وأحزانها ، حتى إذا امتلأت الجيوب أفرغت فى الأكياس ، ومن هناك ينقل القطن إلى المخزن ، ثم إلى المحلج حيث يلحق به الأيفاع من سبتمبر إلى أبريل ينظفونه ويفرزونه . . .

ولمَّا لم يسمع الوكيل اسماً للقيسى ينطلق من بينهم ، كما توقعه بعد توكيد سعادة الناظر له ، ركز طربوشه فوق رأسه واستدار عليهم ، وراح يطوف بأتربة البيدر وحله ودخانه يتفحصها ، وبوجوه الفلاحين وحركاتهم وسكناتهم يتأملها ، ثم مال على العمدة وقال :

— نبدأ التحقيق بسؤال حضرة العمدة لحصر الشبهة .

فأجاب الخولى بلهجة من يملك تنظيم الحرث والتسميد والبذر :

— أنا أتّهم عبد الرازق ، وإلا لما هرب من السوق .

وأدرك العمدة أن لسعادة الناظر غرضاً فيه لم يفصح عنه بعد . فهل يفوّت عليه فرصة اتهام حسن أفندى مزاحمه ؟ كلا ، فتنحنح ، ثم عقب :

ــ لا أظنه عبد الرازق .

ــ ومن إذن ؟

ــ عوف .

ذكره المأمور ليقبض عليه ، ثم يتصيد به خاله القيسى الذى أقلق المديرية كلها .

وأحنى العمدة رأسه موافقاً .

فاضطرب الحولى :

ــ عوف ! ولكنه لم يأت السوق مطلقاً ، وإنما كان يشتغل فى أرضك طول النهار .

ومال الصراف ميل المأمور والعمدة ، لحاجته إليهما فى قبض الضريبة والحجز الإدارى والبيع الجبرى ، فوق خوفه مثلهما من القيسى فغمغم :

ــ وماله ! نحن نتكلم عن الليل وأنت تشير إلى عمله فى النهار .

ــ وأية مصلحة له فى إحراق البيدر ؟

فابتسم العمدة وقد بلغ غايته :

ــ دفعه إليه دافع لقاء شىء من المال .

— ومن قال لك إن عبد الرازق لم يرد الانتقام منكم لقراريط اغتلتموه فيها بخاتم مزور ؟ !

وخاف المأمور على مركزه من سعادة الناظر فتقهقر إلى صف الحولى :

— ربما خطر له أن يمنيكم بالخسارة التى لحقت والده ، يوم استولى المصرف الزراعى على الأفدنة العشرة ، ولم يفرز له قيراطى أبيه منها .

واحتار الصراف فى أمره :

— وهل يقدم على جريمة فى سبيل والد يسره لو تتخطفه الكلاب لقاء ربطه إياه ليلة دخلته ؟

— وما علاقة الوقف بأرض حسن أفندى ؟

— أنت أدرى الناس بها .

— بل أنت . وإلا فلماذا طالبت حسن أفندى بسداد الضريبة اليوم بالذات ، بعد أن حجزت على طست حماة عبد الرازق ؟

وفتح العمدة فمه فعاجله :

— وحضرتك ، ألم ترسل من سد عنه ماء الرى أمس ؟

واهتدى العمدة إلى حل مؤقت :

— ولماذا لا يكون مع صهره . . .

— . . . عبد الرازق .

ـ وخال زوجته . . .

ـ . . . القيسى .

ـ كلا ، فعبد الرازق هو الذى أحرق البيدر .

وقهقه العمدة :

ـ اسمعوا يا ناس ، عبد الرازق ينتقم منا نحن بإحراق بيدر الوقف .

وغضب الحولى :

ـ إذا كان بيدرنا المحترق فما شأنك أنت به ؟

ـ وكيف هذا ! ألست مكلفاً بتحقيق الأمن فى كفر شيحا ؟ والسهر على صحتها ؟ وتمثيلها لدى حضرة المأمور ؟

ـ وماذا تريد ؟

ـ معرفة الذين حملوا عبد الرازق وعوفاً والقيسى على . . .

وقبل أن يتم كلامه تقدم الشاعر من الوكيل وركز عصاه أمامه وفاجأه :

ـ لعل حضرة الحولى . . .

ـ أنا أحرق بيدر الوقف ! لماذا ؟

ـ لا تهامنا به أياماً تشترى فى خلالها الأرض المطروحة بالمزاد .

ـ والله العظيم أنا لا أملك ثمنها .

ـ إذن ؟

— يشتريها للوقف .

— وهل الوقف ، وهو من ألف فدان ، فى حاجة إلى عشرة ؟

— قد يكون فى ضمها إليه حسم للخلاف عليها ، ورفع للإيجار مرة واحدة .

— ومالى أنا ؟

— من يشرب من مرق السلطان تحترق شفته .

ثم اتجه نحو العمدة وأردف :

— ولعل لحضرة العمدة يداً فى ذلك ، فهو يريد منع حسن أفندى من شراء ثلاثة أفدنة ، ليحول بينه وبين الترشيح للعمدية .

كان الوكيل يسمعهم ساخراً ، وينظر إليهم شذراً ، ويمنى نفسه بتحويلهم إلى مثل أنقاض هذا البيدر ، فلما حل الشاعر الأبله محله دفعه وزجره بسؤاله :

— هو أنت وكيل النيابة أم أنا ؟

ثم التفت إلى المتخاصمين مطمئناً :

— علينا باستجواب الخفراء أولا للاهتداء إلى المجرمين ، ومنهم نعرف الذين دفعوهم .

وتهلل الحولى وأوعز إلى شيخ الخفراء : أن تقدَّم .

فتقدم ، ورفع يده بالتحية ، ثم قال :

ـ أنا جار عبد الرازق ، سمعته يطرق باب منزله ، قبيل فجر ليل أمس .

ـ أنت شيخ الخفراء وتقيم ليلا فى بيتك ! من رآه على البيدر ؟

وبلجلج أحد الخفراء :

ـ أنا يا سعادة البك .

ـ متى ؟

ـ حوالى نصف الليل .

ـ هل كلمته ؟

ـ لا .

ـ وكيف عرفته ؟

ـ عرفته ! هو الذى ختن حسنين ابنى . . .

وتتابعت إثباتات الخفراء :

ـ وفصدنى .

ـ وبلّغ عن وفاة أمى .

ـ وكان يقص شعرى قبل أن يخاصم حضرة العمدة .

وضاق صدر الوكيل بهم فعاد إلى أولهم :

ـ وكم كانت المسافة بينك وبينه ؟

ـ نحو كيلو .

— وما أدراك ما الكيلو أنت ؟

— عيب يا سعادة البك : الكيلو رطلان ونصف .

وارتفعت الضحكات من هنا وهناك فأسكتها الوكيل بمتابعة أسئلته :

— ومن بيته إلى البيدر ، ثم من البيدر إلى بيته ، ألم يقابله أحد من العشرين خفيراً ؟

وأخذ يشير إليهم واحداً واحداً فيحنون رؤوسهم صاغرين . وما يقولون ؟ ومن عادتهم أن يتناوبوا السهر فتتولاه أقلية منهم ، حتى إذا استنبحت كلابها دورية أو غريب نبهت الآخرين .

ومال المأمور على الوكيل معتذراً لهم :

— إنهم معذورون يا سعادة البك ، فهم مطالبون بالحراسة طوال الليل ، ومساعدة الصيارفة والمحضرين ، وأداء الرسائل وتوصيل المتهمين ، كل ذلك لقاء مرتبات ضئيلة ، فلا بد لهم من عمل يكفل قوتهم مع عيالهم .

ولم يقتنع الوكيل بحجج المأمور فنزع نظارته بحركة قاطعة وهدر :

— لا ، لا . إنه إهمال فى الحراسة يعاقبهم عليه المجلس العسكرى بالاستقطاع والجلد والحبس دون استئناف .

وأعاد نظارته ، واستخرج من جيبه منديلا حريرياً فرشه على مقعد النورج ، وسيجاراً طويلا أشعله . ثم جلس ينفث دخانه فى الهواء وينظر

إلى الفلاحين الذين تعبوا من الوقوف فقعدوا بين يديه القرفصاء ، فيراهم من خلال نظارته الكثيفة ، مجموعة لا يستطيع تمييز الواحد منهم عن الآخر .

وظن المأذون بأن الوكيل مال مع الفلاحين ، وطمع فى إصدار أمره بإطلاق سراحهم ، فدنا منه متشجعاً ، وقال له متفاصحاً :

ــ أرأيت سعادتك أن لا يد لعبد الرازق وعوف والدرويش فى الحريق ؟

وصاح به الوكيل :

ــ اصمت يا ثرثار .

ثم أخذ يمطره بأسئلته :

ــ ما اسمك ؟ وعمرك ؟ وصناعتك ؟

ووقف المأذون منطفئ النظرات ، مجعد العمة ، متسخ الجبهة . فإذا هدأ روعه وذكر بعض أسماء الله على مسبحته ، أجاب :

ــ أنا المأذون .

ــ وهل أحضرتك لعقد قرانى ! قل لى ما تعرف عن الحريق ؟

ــ أنا استأجرت من الوقف ثلاثة أفدنة زرعت أحدها أذرة وسمدته ورويته سبع مرات آملا أن يغل على سبعة أرادب . وتركت نصف فدان

برسيماً للبقرة . والفدان والنصف الآخران زرعتهما قطناً .

— أنا أسألك عن الحريق وأنت توجع رأسى بسرد متاعبك ! قل لى : مِمَّ تشكو ؟

— من سوء الطالع ؛ فقد عاجل الأذرة بآفة ، وهبط سعر القطن ، فخرجت من تعبى وشقاء عيالى مديناً للدائرة والمصرف و . . .

— وبكم استأجرت الأرض ؟

— بستين جنيهاً ، وأنفقت عليها نحو أربعين .

— ولم لا تتركها ما دمت خاسراً فيها ؟

— لأنى أملك نصف فدان بكفر شيحا ، ولا أجد أرضاً غير الوقف .

— وكيف لا تطلبون تخفيض سعر الإيجار ! ودخل الوقف عشرون ألف جنيه فى السنة ؟

— ديار مصر خيرها لغيرها ، وما فى اليد حيلة . . .

— غير إحراق البيدر ؟

وهاب الوكيل الفلاحون إلا الشاعر — الذى تذكر انكساره فى مناقشة الضابط والمندوب فاحتقره ، وتذكر تعصبه للأغنياء على الفقراء فكرهه ، وتذكر طلب سكينة هانم منه إعلان طلاقها أمامه فأبغضه ، ثم احتار فى أمره ، ولم يجد فى فمه ما يعبّر به عن مشاعره — فرفع عقيرته :

– ظلم ، يا سعادة البك .

ولم يعبأ به ، فأومأ إلى هرم وقع عليه نظره فى أول الصفوف ، وفاجأه :

– وأنت ، أليست لك صلة بالوقف ؟

ووقف الشيخ طه المسكين مضطرباً ، ومن ورائه همهمات الفلاحين تعلو ثم تخف .

– أأبكم أنت ؟

– كلا .

– أجب على سؤالى .

– أقطعنى حضرة الحولى فدانين من الوقف تدفع الدائرة عنهما الضرائب وتكاليف الرى .

– فحسب ؟

– وقدمت لى ما يحتاجان إليه من البهائم والبذور والأسمدة . ولكن لقاء عملى وزوجتى وأولادى الأربعة ، طوال السنة .

– وما زلت حافياً شبه عار ؟ !

– مثل الإبرة التى تكسو الناس فى حين تبقى هى عارية .

– اصمت يا ناكر الجميل . أنت شريك المأذون قف بجواره .

– ومتى كان المأذون والصيارفة ومشايخ البلاد يعتقلون ؟ ظلم يا سعادة البك .

وهمّ الفلاحون بالنهوض وهم يرددون صدى الشاعر :

– ظلم . . . ظلم . . . ظلم .

فنهض الوكيل فتخاذلوا جميعاً وصمتوا ، إلا أبا لبدة الذى وصل حديثاً فإنه راح يتفرس فيهم – كان مع حسن أفندى فى السوق ، ثم فر منها فى أثناء الهرج والمرج . ولما استطال غيابه خاف عليه وعاد يطمئن إليه – باحثاً عن سيده . وعجب الوكيل لهذا الفتى المتطفل يتنقل بين الفلاحين ولا يحترمه ، فسأله :

– وأنت ! ألم تحرق البيدر ؟

– أنا يا سعادة البك مياوم مسكين ، أشتغل فى الحقول والفيضان والمحالج ، لقاء عشرة قروش فى اليوم ، من الفجر للمغرب . فكيف أجد الوقت والجهد والجرأة على إيذاء الناس ؟ وعند من أشتغل إن هم طردونى ؟

– ولماذا لا تتركهم إلى المدن ؟

– لا أحد يموت جوعاً فى القرى .

– وما هذا الذى بيدك ؟

ونشر أبو لبدة رغيف أذرة (بتاو) علق بظاهره حبيبات جبن دار

عليها الزمن . ثم تطلّع إلى الفلاحين مستغيثاً فتجاهلوه : لأن قيمة المرء عندهم بأرضه وماله وجاهه ، وأبو لبدة لا يملك من دنياه سوى سطوة حسن أفندى ، فلينقذه . وتعالت همساتهم :

ــ عمر الفلاح ما أفلح .

ــ اسجد للقرد فى زمانه !

وأحرج حسن أفندى فخرج من بين الصفوف ثقيل الحركة ، كئيب النظرة ، خفيض الجناح . وقصد المأمور وقدم له لفافة ، وفيما هو يشعلها أسر : ألا تجد أن سعادة الوكيل قد جاوز حده ؟

ــ لم يحقق وكيل نيابة فى مكان الجريمة بالعراء ، من قبل . وقد جرت العادة بأن يعاين مكانها ، ثم يتولى تحقيقها فى « دوار » العمدة.

وتطلقت أسارير الفلاحين على رؤية واحد منهم ــ أشجع من العمدة ــ يخاطب الحكومة . ولكم تمنوا أن يصبح سعادة الناظر ــ ساعة يبتسم لهم فتمسى ابتسامته حديث القرية ــ مأموراً لمركزهم .

ودفع الفضول الشاعر إلى معرفة ما يدور بين المأمور وحسن أفندى عن الوكيل ، ولكنه ما كاد يخطو خطوتين حتى استوقفه سعادته هازئاً :

ــ تعال إلى هنا .

كان الوكيل يشعر نحو الشاعر ، منذ المائدة وفى الطريق وعلى البيدر ، بشىء غير واضح من الازدراء والنفور والسخط ، ولكنه يكره نفسه على السكوت عنه إلى ختام التحقيق ، ليضرب به الضربة القاصمة .

وهكذا ناداه وسأله :

— أين الظلم الذى ما فتئت تجأر به من أول التحقيق ؟

— فى اعتقال المأذون والشيخ طه وأبى لبدة .

— ألم تثبت التهمة عليهم ؟

— ثبوتها على كل مستأجر ومشارك ومياوم .

— تعنى سكان كفر شيحا جميعاً .

— ومن ورائهم ملايين الفلاحين لتشابه أحوالهم .

وجلس الوكيل واضعاً ساقاً فوق ساق — فقد دل جواب الشاعر على أنه ليس مخبولا إلى الحد الذى يحول دون إلصاق تهمة الحريق به — ثم أشعل سيجاره المنطفئ وأغمض إحدى عينيه ، واستأنف مداورة الشاعر :

— البيدر ، أمامك ، فكيف تراه ؟

— محترقاً .

— هل أحرقه هؤلاء ؟

— كلا .

ـ ولا واحد من كفر شيحا ؟

ـ أبداً .

ـ ولا من القرى المجاورة ؟

ـ مطلقاً .

ـ وما أدراك ؟

ـ آه .

ـ إذن أنت الذى أحرقه .

وأغرق الشاعر فى الضحك :

ـ أنا ؟!

ـ لا تضع وقتى : أمامك ثلاثة أيام للاعتراف . . .

ـ . . . بمالم أفعله .

ـ لابد لك من ذلك .

ومدّ الشاعر عصاه فى اتجاه الوكيل وصاح :

ـ هل جننت ؟

وألقى السيجار فى وجهه متوعداً :

ـ أتشتمنى أيها القذر ! اضربه يا خفير .

وشقّ على شيخ الخفراء ضرب ابن أخته فتولاه عنه المأمور بركلة ركلة أراد أن تنفذ من الشاعر إلى رأس القيسى ثم بصق فى وجهه ،

ولما نظف شاربه ، ارتد إلى حيث الضابط والمندوب والصراف مبرراً فعله :

– هؤلاء الفلاحون لا ينفع فيهم غير السوط ، لا تغتروا بمظاهرهم بل اسألوني عنهم ، فقد ذقت الأمرين منهم : هذا المتغابى قطع أسلاك التليفون وراءنا ، وذلك المتراخى جرح اثنين من رجالنا ، وذلك المتغافى أشعل النار فى سيارتنا . كل ذلك لمنع المصرف الزراعى من الاستيلاء على أرض حسن أفندي سداداً لدينه .

ولم يسكت الشاعر بالرغم من ضربه ، فجأر :

– معذورون ياسعادة البك ، فقد كانت لنا فى تلك الأرض قراريط .

وطفق أحد الخفراء يشد وثاقه ، والمأمور يسأله :

– فما يكون حالكم يوم السبت ، عندما تباع الأرض بمزاد علنى ، وفى المحكمة ؟

فلما انتهى منه التفت إلى المندوب :

– حضرتك جديد فى مديريتنا لم تشهد ثورتهم على سلفك فتخدع باستسلامهم أمامنا الآن عن انتظارهم القيسى ليهربوا منا ، ولكننى سأخرب بيوتهم قبل مجيئه ، وأعلق عنقه فوق أنقاضها .

وكان المندوب والضابط قد تفيئا ، منذ وصلا ، ظل شجرة وارفة قريبة من البيدر ، يتعقبان الوكيل فى تحقيقه ويأسفان لاستخزاء الفلاحين أمامه . وقد تمثلا بهم ملايين أمثالهم منذ مئات السنين ،

فيقول الضابط بالفرنسية :

ـ يشكو المأمور من قطع أسلاك وجرح عسكرى وإحراق سيارة ، على يد بضعة أنفار ضاعت قراريطهم ، فما يكون شأنه لو أقبل آلاف الفلاحين على السجن والتشريد والموت جيلا واحداً ـ بدل العيشة التى يعيشونها ثم الموت من أجل لا شىء ـ فى سبيل استخلاص حقوق الملايين الضائعة منذ أجيال !

ـ وكيف يقبلون ، وهم أميون لا يفرقون بين حقوقهم وواجباتهم ؟ فإن أنت أطلقت لهم الحرية تحرروا منها بهدمها ، فعل الضعفاء والجهال وغير المسئولين .

ـ وحتام ؟ . . .

ـ حتى تتم تربيتهم الخلقية والعلمية والفنية .

ـ ولكن ذلك يحتاج إلى حماية ومساعدة وتوجيه ، فمن يتولاها ؟

ـ ألا تجدها تؤلف ذلك الشىء الذى تبحث عنه ؟ فمن تولاها كان فضله عليهم فضل النيل على أرضهم .

ثم غادره إلى الوكيل فانتحى به جانباً ، يسر فى أذنه كلاماً لم يعجبه ، فضحك منه ، ثم التفت إلى الفلاحين ويداه معقودتان وراء ظهره ، وأعلنهم مندهشاً :

ـ حضرته يقدر الخسارة ! وأنا أفرض قيمتها على القادرين منكم ؟

لا ، يا صاح . إن سعادة الناظر تكلفه استضافتنا مدة ثلاثة أيام ، أضعاف ثمن البيدر . فالمال لا قيمة له فى نظرنا ، وإنما العدالة تقتضينا الاقتصاص من المجرمين تأديباً لهم ولأمثالهم .

وفرح المندوب لإذاعة سره ، فوضع المنشة تحت إبطه وأشعل لفافة، ثم غمغم محرجاً :

— ولكنك لم تجد المجرم ، فكيف تحق الحق ؟

وغضب الوكيل من المنشة والدخان واللهجة ، فى حضرة القضاء ، فعاد إلى مجلسه من النورج وأجاب ، وهو يداعب زر طربوشه فوق ركبته ، متهكماً :

— موظف بثلاثين جنيهاً يريد إحقاق الحق بعيداً عن الحقيقة : بيدر أحرقه الفلاحون . هذه هى الحقيقة ، والاقتصاص منهم هو الحق ، ولكم وددت لو أن سعادة الناظر أحرق البيدر لأعتقله ، ثم أطلق سراح شاعرك وأصحابه .

— ومن قال لك إنه ليس سعادته بأيدى هؤلاء ؟ فلو كان لهم غير هذه الأفدنة التى يسعون إلى شرائها وتوزيعها عليهم قراريط لما عادوا عشرين قرناً إلى الوراء ، للبحث عن النار المحرقة . فهل هناك جناية أفظع ! اللهم إلا الحكم عليهم بقوانين تعلمتها فى الكتب ؟ ألا تستحي أنت من نفسك لأنك لم تعطهم عود الثقاب ، بدل . . .

وضحك الوكيل ، ثم وضع طربوشه على رأسه وهو يفصح عن خواطره بقوله :

ـ يا لك من فوضوى !

ـ أنا ؟

ـ أجل أنت ، وقد تبيّنت ذلك من حديثك على المائدة ، ولكننى تسترت عليك . . .

وهال المندوب اتهام الوكيل ، الذى نقله من أرصفة الشوارع إلى غياهب السجون ، فألقى لفافته وحك صلعته ، ثم لجلج :

ـ أرجوك ألا تهزل معى فى هذا الموضوع بالذات .

وأين الهزل ؟

ـ فى رميك إياى بما يقوم على إنكار العقائد والطبقات والحكومة .

وتنبه الضابط إلى الخطر المحدق بصديقه ـ وقد تمثَّله ، بالرغم من سعة الفضاء ، فى قفص الاتهام ـ فوقف بينه وبين الوكيل مدافعاً :

ـ وكيف نأخذ بمذهب بدأ أصحابه يعدلون فى مبادئه : فبعد أن ضمنوا للفرد حاجاته القصوى من الغذاء والسكن والكساء وجدوا أنهم خلقوا له الحق فى البطالة فقرنوا ضمانهم ذاك بنوع عمله وكميته على مبدأ « العمل واجب وكرامة » .

وقهقه الوكيل لحظة استعاد بعدها وقاره وتابع مجرى أفكاره :

– وهل كنت أتوقع منك غير هذا ؟ بعد تمسكك بمعتقدات الأقدمين ولغاتهم وشرائعهم .

– ولماذا ؟

– لأنك رجعي .

وأدرك الضابط التورية فأشعل غليونه ورد على الوكيل مفنداً :

– لقد فهمت خطأ : فما أنا ممن يؤمنون بالحظ الذى يخولنى حق الاستيلاء على جميع ما فى العالم ، فأظن ما ليس بيدى مسروقاً منى ، لا أقبل فيه مساومة أو مشاركة أو مقاومة ، حتى ولا تعاوناً . . .

– أجل .

قالها الوكيل ، وهو لا يلقى بالا إلى حجج الضابط بل يتحرّى الاضطراب الذى انتقل إليه من المندوب ، ثم تفشى بين أعيان كفر شيحا ، حتى بلغ فلاحيها فيكبر السلطة التى وضعها القضاء بيده ، فعوضته عن إخفاقه فى المناقشة والتحقيق والغلبة ، وأشعرته بلذة عميقة كثيفة ، عنيفة ، فى تحطيم الناس وتشويههم وتخويفهم . ولو أن سكينة شاهدته . . .

وانطلق بوق سيارة المرسيدس على خطوات ، ثم وقفت بجانب البيدر ، وترجلت منها سكينة هانم فى رداء لبسته لبس اليد للقفاز ،

وما إن رأت ذلك المشهد الكئيب الصامت حتى عقدت الدهشة لسانها، فراحت تقلب نظراتها فى فرح الوكيل، وقلق الضابط والمندوب ، وحزن الشاعر ورفاقه ، وحيرة العمدة وأعوانه ، وجمود الفلاحين بالرغم من كل ذلك . ثم دنت من الوكيل وأسرت فى أذنه شيئاً فصاح :

ـ كلا .

وعادت إلى وشوشته فنحاها عنه متسائلا :

ـ كيف أفعل وقد أحرقوا البيدر ؟

وكررت همسها فضحك :

ـ شدة حاجتى إلى الشاعر الأبله !

ورفعت صوتها :

ـ أنت اليوم غير ما أعهده فيك .

ـ أنا اليوم محقق لا صديق .

ـ خير لك . . .

وبرم بتدخلها فقاطعها :

ـ . . . لن أطلق سراحهم .

وسمعت فى صوته نبرة سعادة الناظر فقطبت ، ثم ابتسمت فى وجهه ابتسامة استهزاء كشفت عن وجهها العريض ، وقبل أن تضيع بين خصائل شعرها المتهدل صاحت فيه :

— يا لك من أحمق !

— أنا ؟

— أجل أنت .

— وما شأن النساء فى التحقيق ؟ إن سعادة الناظر . . .

— سعادة الناظر خدع العمدة والخولى والضيوف بقصة التحقيق ، فهو لا يريد شراء الأرض ، ولا اعتقال المجرم ، ولا حمايتك من القيسى ، وإنما يريد توريطك بطردك من الحزب ، ومن النيابة ، ومن القصر .

وتحولت لذة الانتقام فى عينيه إلى مرارة على لسانه فلجلج :

— وكيف يكون ذلك ؟

— بتحقيقك فى حريق وقع ليلة أمس : فمن كلفك به ؟ ومتى ؟ وعلى يد من ؟ إن مرجان لم يبرح مكتب سعادة الناظر اليوم ، وما أخرجه عند العصر منه إلا تغريراً بك .

عندئذ التفت إلى المأمور آمراً :

— حل وثاق الشاعر وأطلق سراح الفلاحين فى الحال .

وأسرع شيخ الخفراء إلى وثاق ابن أخته ، ولكنه صرخ فيه :

— إليك عنى .

وبهت الجميع ، وسألته سكينة هانم :

— ولماذا ؟

ـ لن نبرح البيدر والتهمة وراءنا .

ـ كلكم أبرياء .

ـ البيدر أحرق ولابد من معرفة الجانى .

ـ وكيف تعرفه ؟

ـ بالمندل .

ورأى الفلاحون فى شاعرهم بطلا ، أجرأ من المأمور والعمدة والصراف ، فأجمعوا على صواب رأيه ، لرفع الغمة عنهم مرة واحدة ، بأصوات متظلمة ، متشفية ، متحدية :

ـ المندل . . . المندل . . . المندل .

واعترض المندوب :

ـ ما هذا العبث ؟ إنه إهدار للعقول . . .

وأيده المأمور :

ـ . . . وسبب جنايات لاعداد لها ! فسيوزع الدرويش التهم على الفلاحين ، فيثورون لكراماتهم ويختصمون فيما بينهم .

ووافقه الضابط :

ـ . . . والقانون لا يعترف به .

وعند الشاعر :

ـ ولا يحرمه : أيستطيع أحد منعنا من فتحه ساعة نعود إلى بيوتنا ؟

– كلا .

– افتحوه أمامنا .

– أهلا وسهلا .

– تعالوا إلى القصر .

– فى القصر يفسده الحولى .

– وأين تفتحونه ؟

– فى الضريح .

ورأتها سكينة هانم فرصة مؤاتية لدراسة عادات القرويين وخرافاتهم ومدخل التضليل فيها ، وأملت أن ينبثق خيط من نور فى ذلك المكان ، فيجلو ظلمات الشك الذى يحيط بالحادث ونتائجه فقالت :

– إلى الضريح .

وانطلق الفلاحون خفافاً فرحين ، مرددين معجزات الدرويش :

– رأيته مرة يمزق صورة نشرتها الأهرام لأحد المستحقين فى الوقف . وبعد أيام أخبرنا حضرة الحولى أن السيارة اصطدمت به فكسرت ساقه . وأين ؟ فى بلاد الأجانب .

– وكردان بنت العمدة ؟ لقد وضع الدرويش فى يدى إبريقاً ولما عزم عليه انحنى إلى الأمام ، وسرت فى اتجاهه حتى وقع فجأة على مقبرة فوجدنا داخلها كردان الذهب .

ـ وبندقية الخفير . . .

عندئذ تدخل المأذون :

« إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت » صدق الله العظيم .

وكانوا على أبواب ضريح سيدى الكردى ـ وهو قبة مضروبة ترتفع وسط المقابر ، تحت شجرة جميز ، قرب بئر ـ فدنوا منه يقرأون الفاتحة متبركين ، متذكرين عبادتهم : فيما علقوه على جدرانه من شموع وخرق وخصل شعر ؛ فهم لا يمكنهم الاتصال بالله عن غير طريق الدين ، وفى اتصالهم به شىء من تعبهم على الأرض وأملهم فى الجنة . مفاخرين بماضيهم : فما ينفق الواحد منهم بضعة قروش ، على زواج أو ختان أو عيد ، إلا خرج إلى الضريح فى موكب ذكر أو فروسية .

ودخل الدرويش الضريح ، وفى أثره سكينة هانم وضيوفها ، ثم عمدة كفر شيحا وأعيانها . ولما استقر بهم المقام أمر الدرويش شيخ الخفراء :

ـ أحضروا الشاعر ، فما زال فى طهارة الأطفال ، ولا غلام بيننا .

ونهض فأشعل مجمرة ، وملأ فنجاناً من الزيت ، ثم أجلس الشاعر بين يديه ، ولما وضع فى كفه الفنجان وأطلق البخور من المجمرة راح يتمتم ببعض التعاويذ ، وأصابعه تتداول حبات مسبحته ، فإذا عبق

الضريح بالبخور صمت برهة ، ثم سأل الشاعر :

— هل حضر الخادم ؟

وأومأ الشاعر بالإيجاب :

— قل له : اكنس ورش وصف الكراسى لملوك الجان .

— لقد فعل .

— والملوك ؟

— قد حضروا .

وأغمض الدرويش عينيه ، وتقلصت سماته ، ورفع يديه ، ثم عزم على الفنجان وأمر الشاعر :

— اسألهم : من أحرق البيدر ؟

وصمت الشاعر :

— هم لا يجيبون ؟ دعهم وشأنهم ، وانظر فى قاع الفنجان .

— أرى رجلا وبيده مشعل .

— من هو ؟

وكاد يقول : عوف ، ولكنه خشى أن يناله ضيق من زوج أبيه ، وينصر العمدة على الحولى ، ثم يجره ذلك إلى أبيه ، فأجاب :

— لا أتميز وجهه لأن رجلا آخر يدفعه بكلتا يديه .

— ومن الرجل الآخر ؟

ورفع الشاعر نظره عن الفنجان إلى الحاضرين فأخفى الحولى رأسه .

ـ من الآخر ؟

ـ لا أعرفه .

ـ مر ملوك الجان بأن يكتبوا اسمه .

واضطرب الشاعر .

ـ اسألهم إذا كان الرجلان من كفر شيحا .

ـ سألتهم .

ـ هل هزوا رؤوسهم ؟

وأحس الشاعر بأن قواه قد خذلته ، وبلغ اسم عوف طرف لسانه ، فألقى الفنجان من يده ، وقال :

ـ لقد غادر الملوك الفنجان .

وخرجت سكينة هانم تبشّر الفلاحين :

ـ ليس المجرم من كفر شيحا ، فانصرفوا إلى بيوتكم .

وانصرفوا مكبرين مهللين ، لانتصارهم على الحكومة بالدرويش : فهم ، لسذاجة تفكيرهم وقلة خبرتهم وندرة وسائلهم ، يصطنعون الوهم والخداع والسحر فى التغلب على ما يهمهم ويقلقهم ويخيفهم . وما داموا يؤمنون بتأثير الميت فى الحى وتمثيل الفرع للكل وقيام الصورة مقام

الأصل ، فأى عيب عليهم فى استخدامها بذكرها أو إتلافها أو تبخيرها ؟ أو ليس ذلك أيسر وأرخص وأستر من تحطيم أصحابها الذين خلقوا لهم تلك المشاكل !

الفصل الخامس

انطلق الشاعر من الضريح إلى كفر شيحا مسرعاً ، على غير عادته : لئلا يؤذن أبو لبدة المغرب ، بصوته الأجش ، كما أذن الظهر ، فيحفظ الفلاحون عن شاعرهم صياحه وبكاءه ونشيجه على البيدر ، وينسون انتصاره بذلك على العمدة والوكيل والمأمور ، فلا سبيل إلى تغطية ضعفه هذا إلا بإسماعهم نغماته العذبة ، الرخيمة ، المديدة ، من فوق سطح مسجدهم .

ولعل سعادة الناظر يرسل خفيراً فى طلبه قبل أذان العشاء — ولطالما سمعه يقول : ليس للزمان والمكان قيمة فى مواعيد الفلاحين ، ولابد من إرسال عشرة ، الواحد تلو الآخر ، لإحضار فلاح — فإن هو فعل فسيصحب الخفير إعلاء لشأن سعادة الناظر أمام ضيوفه . ولن يلومه فقد رفع عن عاتقه حملا ثقيلا ساعة أقنعه بأن لكل جيل من الفلاحين مشكلة قراريط ، يحلها حلا ارتجالياً ، على الطريقة القديمة ، وبقدر نفوذه بين صغار الملاك . . . فما أسعد الشاعر ، وقد استوعب قول سعادة الناظر بحذافيره ، فى ساعة من تجلياته التى قلما تقع له فى غير الأرض . . . وما له هو والفدان ؟ ما دام حسن أفندى يعجز عن شراء ثلاثة أفدنة ،

وكان جده عمدة يملك أربعين فداناً . . . ولئن أخفق فى شراء فدان ، فلم يمتلك جده وأبوه ، فى يوم من الأيام ، قيراطاً . . . ولا جاموسة . . . ولا من هى مثل سكينة هانم .

وضم الشاعر العصا إلى صدره ، وهو يسائل نفسه : متى تعلن زواجها منه ؟ ثم تصور بيتاً مستقلا به ، فيه جهازها : ثوب أحمر وقميصان وسوار فضة . ومعه أثاثها : إبريق وطست ونضد وصندوق .

فإذا بلغ خياله الشرود على حشية القطن ووسادتها ولحافها ، استبطأ موكب عروسه ، على جمل ، مخضبة بين ثلاثة من قريباتها . وقد استحم فى بيت المأذون ، وجاءه خاله « شيخ الخفراء » بالعوالم . . .

وصحا الشاعر مقهقهاً : ولكنها على ذمتى ، فإن طلبتها إلى بيت الطاعة؟ بل إن طالبتنى هى بمأوى عن طريق المحكمة ، فأين آويها ؟ . ومد ببصره إلى سحابة من مئات الحمام آوية إلى أبراجها فى القصر ، بعد أن نقرت فى زراعة الفلاحين ، فلما انقشعت ظهر له كفر شيحا : مسجد حوله بيوت من اللبن ، فوقها حطب الأذرة وأعواد القطن ، خلا المدرسة الإلزامية وحانوت ينى « ودوار » العمدة . وهو صورة مصغرة من أربعة آلاف قرية منتشرة فى وادى النيل ؛ بدائية ، مشوشة ، متلاصقة . يخفى دمامتها شجر النخيل والسنط والجميز والتوت الذى يحيط بها . لا فنادق فيها أو نواد أو ميادين ، مما يحتاج إليه الجسم والعقل والروح .

ولو كان للفلاحين شيء منها لخرجوا على قراهم ، وتطوروا فى بيوتهم ، وأزهرت نوافذهم رياحين وورودا وزنابق . فكيف تترك سكينة هانم قصرها إلى بيت عبد الرازق ؟ وأين الجاموسة ؟ لا يراها فى حقل المأذون ! لعل عوفاً عاد بها إلى الحظيرة . عظيم : بعد الأذان سيستحم معها فى الترعة ، ثم يركبها إلى مصطبة العمدة ، فتراه سكينة هانم فوقها ، وحول عنقه تلفيحة حرير .

وعند مدخل البيت لمح الشاعر جده يغزل الصوف على المصطبة ، وأمه ترقع رداءها إزاءه ، فأغضى عنهما ليدخل ، إلا أن امرأة أبيه خرجت إليه — ووراءها أخته — لتفاجئه :

— لقد تزوج أبوك .

ونحاها :

— فليتزوج ، وأنا تزوجت . وخديجة ستتزوج غداً . والناس كلهم يتزوجون .

وصاحت أمه من على المصطبة :

— المرأة التى جاءتنا اليوم ؟

— وما شأنك أنت ؟

— أليس زوجى كما هو زوجك ! ؟

وقال جده :

ـ ومن القاهرة هذه المرة .

وغضبت خديجة :

ـ دعك من هراء هؤلاء الكذابين .

وعادت أمها إلى الإقناع :

ـ ولم لا ؟ ليس غريباً على فاجر مثله .

وتوعّدته ضرتها :

ـ والله لأخربن له بيته .

وتحدّاها الجد :

ـ وما تفعلين بوليده ؟ يوم يخلف !

وجن جنون العاقر :

ـ اخرس يا شيخ ، فأل الله ولا فألك .

وغمغمت خديجة ، وإن كانت لا تخفى فرحاً طغى عليها :

ـ ومتى تلد ؟

وطمأنتها أمها :

ـ فليتزوج أبوك ما شاء ، ولكنه لن يخلف .

وقاطعها أبوها :

ـ اسألوا من فى القصر . . . والفدان الذى اشتريتموه سيقاسمكم فيه إخوة لا يعرف عددهم إلا الله .

وضحك الشاعر :

ــ لن يشترى أحد من الفلاحين فداناً ولا قيراطاً .

وعادت العاقر إلى السؤال :

ــ وكيف الوصول إليها ؟

ــ ولماذا ؟

ــ ولد أفضل من عشرة .

ــ وما ذنبها هى ؟

ــ أجل هو . . .

وعلقت الأنظار بالشاعر فتجاهلها ، ليقلب عصاه بين يديه ، ثم يدفع الباب بها ، لولا أن استوقفته أمه متنهدة :

ــ يا لخسارة جاموستك يا بنى .

ووقعت التنهيدة فى قرارة بكر من نفسه ــ حيث الجنة تحت أقدام الأمهات ــ فارتد إليها وصرخ :

ــ جاموستى ! . . .

ــ باعها أبوك اليوم وضيعها عليك ضياع الأرض .

ــ كذابة .

ــ أنا أملك .

ــ ومن قال لك . . .

ــ . . . ينتى نفسه ، فقد كانت مرهونة عنده ، ولما باعها أبوك فى

السوق ، من ورائه ، عاد إلى القرية وأذاع الخبر فيها ، وأقسم أن يبلغ . . .

وقفز الشاعر إلى الحظيرة ، وقد خيم اليأس عليه ونزل الموت به ونزعت روحه منه ، وراح يدور بمربط الجاموسة الخاوى يجتر ما فيه معها اجترار إحساس أكثر منه اجترار فهم : لقد اشتراها باستفزازه عواطف الفلاحين وخواطرهم وأخيلتهم ، خلال طوافه بالقرى أشهراً ، حتى تحولت تلك البهيمة ، فى نظره ، إلى مخلوق شعرى لا قبل له بفصلها عن عذوبة صوته ورنات ربابته ولياليه المقمرة ، فصار يأنس باجترارها ونظراتها وخطواتها ، أضعاف ما يطمئن إلى أهله وأسياده ومعارفه ، لأنه لم يلق منها ، فى يوم من الأيام ، ما لقيه اليوم من سخرية وزجر وضرب ، وهى ، على الرغم من حرثها الأرض وتسميدها الزرع وإدارتها الساقية وجرها النورج ، تسمن وتلد وتدر اللبن . ألم يكتف أبوه . . .

وسمع الشاعر صوتاً غير صوته — هو أبو لبدة — يؤذن للمغرب ، فأرجعه إلى وعيه وعاد من شروده وجلس ليستريح ، فإذا هو جالس على قفطان أبيه بحذائه ، فذعر كمن لسعته أفعى ، وهب جارياً إلى المنظرة يخلعهما عنه . ثم يعود إلى حيث كان من مربط الجاموسة كأنما هو يحمى خواءه ، ما دام الكلب بين يديه ساكتاً عن قفز الدجاج حواليه لا يحرك عليه ذيلا .

وكانت امرأة أبيه بالفرن تطبخ الملوخية غير مأدومة ، فعلها بالفول والبامية . ولطالما استغنت عنهما بالجبن (المش) والبصل واللفت ، وما تجاوزت فاكهتها العسل الأسود والتمر أو عود قصب أو كوز أذرة . ثم تنهض بعد الأكل إلى عملها ، مقبلة يديها وجهاً وقفاً ، شاكرة : الحمد لله على النعمة .

وكانت أخته تضع على نضد ــ الطبلية ــ أرغفة من الأذرة ، وثلاث قصاع فخار ، وقنديلا نصف مضاء ، خوفاً من أبيها القائل دائماً : كل واحد تعرف يده مكان فمه .

وارتفع صوت عبد الرازق :

ــ يا وليَّة ، اغرفى الملوخية ــ فقد كاد يهلك جوعاً لتخفيه طول نهاره فى الساقية ــ يا خديجة ، لقد جئتك بالقرط فأعدى أدوات الوضوء . أين الشاعر ! ما صنع مع سعادة الناظر ! وفى التحقيق ؟

وجاءته خديجة بأدوات الوضوء ، فتوضأ وقام يصلى . . .

بينما انصرفت بنته إلى زاوية فرشت فيها حصيراً قعدت عليها : مادة يديها ــ وفيهما القرط ــ فى شبه دفاع عن نفسها .

ووضعت زوجته قدر الملوخية على النضد واستقرت بجوارها : جامعة ساقيها تحتها ، شاحبة اللون ، قاسية النظرة ، متحجرة .

كل ذلك ألم به الشاعر ، وهو يرى أباه ينهض ويركع للصلاة ،

بالرغم من تطليقه أمه ، وطرده جده ، ومخاصمته القرية ، وزواجه ، أجل زواجه . فيحس تجاهه بإحساسه تجاه الحشائش البرية الضارة تمتص غذاء الزرع وتمنعه النماء والنضج . وليته كان مثلها فحسب ، ولكنه باع الجاموسة . وعلى مربطها الخاوى تجمعت أمام عينى الشاعر عقارب الحياء والكبت والجزع ، التى كانت تذهب فى طواياه وتجىء على غير وعى منه ، عند اتصاله بالناس والبهائم والأرض . . . فتطفو حيناً وترسب معظم الأحيان فى أعماقه لتختمر مع الحسرة والبغض واليأس ، ثم تفرخ فجأة إفراخ السماد من حرارة الشمس لتملأ رأسه ضباباً وعروقه غلياناً وساقيه خفة ، فتحفزه إلى إتيان أمر يحقق به شخصيته ، ولا يهمه منه صوابه فيه أو علاقته به أو أثره بعده . ونظر إلى أبيه فأنكره — وكأنما طلع عليه لأول مرة فى صورة سعادة الناظر والوكيل والمأمور : أسياد الأرض وقضاتها وحماتها ، — وبأسرع من لمح البصر تناول الشاعر ، أو الحيوان المفترس الذى أصبحه الشاعر ، الفأس — تلك الفأس التى كشف بها عبد الرازق عن قدر ثروته عند الفجر — ومشى وراءها كالأعمى مدفوعاً من شىء لا يتبينه نحو شىء لا يعرفه ، خاضعاً لها خضوعاً جبرياً ، فإذا اصطدم برأس أبيه الساجد للصلاة ، دق عنقه ، ولم ينبس . وتلقى الشاعر من صدى الفأس صدمة أفرغت رأسه من الأفكار

وعروقه من الدم وساقيه من الحركة ، فوقف تمثالا جامداً ، صامتاً ، أمام عالم انتهى زمانه ومكانه وسكانه .

وعوى الكلب بالباب عواء نحيب مستطيل ، هرعت عليه الأم إلى ابنها ، وفى أثرها أبوها متوكئاً على عصاه ، فإذا ببيت عبد الرازق كسابق العهد به : حر وظلمة وضجر ، على دهشة عقدت جوارح أهله فيه وكأنهم أغراب عنه ، لا أسرة خلقها الحب والإخلاص والقربى . وانخذلوا جميعاً أمام ضعفهم : فالأسرة لا ترتجل أو تشرى أو تزيف ، إلا أن منظر الشاعر أرهبهم ، وكأن الجريمة ما زالت فى عقله الباطن خاطرة لا تطرف له عين نحوهم ولا تلين لهم فى وجهه أمارة ولا تفلت يده تلك الفأس فوق ذلك القتيل المسجى ، الذى ما فتئ قلبه يخفق وعضلاته تضطرب ودمه ينفر فيملأ الأرض ، فأين كان دمه كله من جسده ! ؟ ما أقبح الإنسان وهو يموت . وأشاحوا عنه إلى الشاعر فأنكروا منه الابن والحفيد والأخ ، ورأوا فيه قاتلا ، فى شبه ظلمة ، وفزعوا من فأسه أن ترتفع وتهوى على واحد منهم ، فتقابلت نظرات الضرّتين على جزع خديجة ، وقالت نظرة الأم : لقد أردت قتله . وردت عليها نظرة غريمتها : ابنك الذى قتله . أما الشيخ فقد وجد نفسه أمام مشكلتين تطلبان الحل السريع : قتيل يطالب بثأره ، وحى يجب إرجاعه إلى سيرته

الأولى من إحساس الأحياء المفهومين . ولما لم تكن لحياة عبد الرازق وموته قيمة فى نظر الشيخ فقد تناول حفيده يهزه من كتفيه بكلتا يديه الكليلتين صارخاً :

– ما وقوفك هكذا كالمجنون ! أو تريد أن تجهز على بقية الأسرة ؟ أم تجرنا معك إلى حياة الجنون ؟

وعاد الشاعر إنساناً يفكر :

– وما العمل ؟

– ادفنه .

– أجل ، تحت الفرن .

وتحول إلى الفرن يهدمه بتلك الفأس الملطخة بقطرات من دم أبيه ، وأمه وخالته وجده يعاونونه عليه ، فى حين قبعت خديجة فى فراشها ، وبيدها القرط تنظر إليه ؟ وضربة الفأس ترج رأسها وتفتق أفكارها : لقد قتلوا أباها لأنه تزوج لثالث مرة ، لئلا ترزق إخوة تداعبهم ورجالا تقوى بهم ، فما تركوا لها ؟ أما فى بيتها ، وزوجة أب غريبة عنها ، وأخا للسجن . ثم ذلة اليتم وضياع الأرض وعيلة البنت التى لا تعرف السعى لغير عائلها ، واليأس من الفوز بزوج على يده . ثم هى ترى قبل ذلك



جميعه أن الوالد هو الوالد ، وأن قتله لا يفهم إلا فى الأقاصيص التى يرويها الشيوخ وينشدها الشاعر . أما فى واقع الحياة ، حيث عبد الرازق وبنوه فغير مفهوم ، ولو كان قاطع طريق كالقيسى ، فقتله مذهل مفجع ، ولا سبيل إلى الغلبة عليه بكتمه . وحينذاك ندت عنها صرخة انخلعت لها أفئدة من فى البيت ، وأسرعت المرأتان بخديجة إلى الحظيرة فكممتاها بمنديل حيناً ، ثم كرتا إلى الفرن تساعدان الرجلين على إعادة بنائه فوق الجثة .

وعندما همَّت زوجته الثانية بخلع خلخالها استدركتها زوجته الأولى :

– لا تنزع المرأة خلخالها إلا عند موت زوجها .

قال الشيخ :

– ذهب عبد الرازق إلى القاهرة .

وأوضحت ابنته :

– لزيارة أضرحة الأولياء .

ووافقت ضرتها :

– ولدينا منه خطاب .

وتذكر الشاعر الورقة « الرسالة » التى حمله إياها سعادة الناظر لأبيه ، فمشى إلى القفطان يستخرجها منه ، ولما عثر على قطعة الحلوى « عيش السراى » معها فرح بها ، وقصد الحظيرة فوضعها بين يدى

أخته المنتحبة ، فدستها فى التراب ، فانصرف عنها حيث تناول ربابته وعصاه وخرج قائلا :

— لقد حان موعد آذان العشاء .

سار إلى المسجد مطمئناً : فالعالم ليس فى صميم ضميره لتمييز أفعاله وتغليب الصالح منها ، بل حيثما تقع عيناه على سماء صافية ، وتلمس كفه من أذرة نامية ، ويشم أنفه رائحة السماد ، وتسمع أذنه نقيق الضفادع .

وعلى باب المسجد أدرك خطأه : فموعد الأذان لم يحن بعد . ولكنه دخله وجلس القرفصاء ، حول عصاه وربابته ، على أولى درجات السلم المؤدى إلى السطح تحت نور القنديل . ثم نشر ورقة سعادة الناظر ، فإذا هى إلى عبد الرازق وفيها : قابلنى مساء، فى طريقى إلى « دوار » العمدة ، خفية عن الفلاحين ، لأساعدك على شراء الأرض .

وهرع الشاعر بربابته — ناسياً الأذان والعصا — إلى طريق دوار العمدة لمقابلة سعادة الناظر . وفى ضوء القمر لمحه بين ضيوفه ، ومن مؤخرة صفوفهم سمع صوت المندوب ، فاضطرب ثم أبطأ الخطو بحيث لم يع قوله للضابط :

— أليس بين ملايننا ، فى بقعة من أرضنا ، نفر يغتنمون أزمة الحكم اليوم عندنا ليبدءوا حركة تتسع مع الزمن ثم تشمل الجميع ؟

وخاف الضابط على سره فاستبعد الفكرة :

– ما كل أزمة تسفر عن حركة ولا كل حركة عن إصلاح . فثمت شروط لابد من التقيد بها ، وإلا وئدت فى مهدها ، ونكل بأصحابها ، وعيقت الأمة عن حقوقها سنوات .

– صدقت فلكل حركة أربع مراحل : الأولى لإعداد مذهبها ، والثانية لتفجيره بين الناس ، والثالثة لرد الانفعال الذى صحبها ، والرابعة لإيجاد التوازن المثمر فى سبيل الخير العام .

وأشعل الضابط غليونه ، ثم استرسل :

– فالتفكير إذن بالحركة ليس نقطة انطلاق بل بلوغ : فيجب إقناع الناس بمذهبها أفراداً وجماعات ، جيراناً وأباعد ، إقناعاً متواصلا ، عن طريق التعليم والمثل والتكرار ، لإقرارها فى عقولهم وتمكينها من نفوسهم وتبديلها لضمائرهم . عندئذ يقبلون عليها ، بين مؤيد ومناهض وحكم – لا كمتفرجين ومتربصين ونائمين – بالفهم والتحليل والتعبير ، حتى يطهروها من عناصر المبادهة والانتقام والارتزاق ، ويحفظوا عليها ليونة التبدل والاقتباس والتطور . فإن نجحت ، فى جميع هذه المراحل ، عملت فى الداخل أضعاف عملها بالخارج ، وإلا ظلت الحركة خاطرة أو ناقصة أو متحجرة .

وندّت عن المندوب ضحكة أشبه بالصرخة :

– علينا بالانتظار مئات السنين ، ليقبل الفلاحون – وهم ثلاثة أرباع الأمة على الوجه الذى رأينا – على الحركة بالفهم والتحليل والتعبير .

وكان الشاعر يسير وراء كلام يسمعه طنيناً وأزيزاً ، إلا أنه يلقى عليه شيئاً من مهابته ، إن لم يدنه من الوجهاء فهو يبعده عن الفلاحين ، إلى أن وقعت الصرخة فى قلبه ، وأعقبها سكون رهيب . ثم ارتفع صوت العمدة مرحباً بضيوفه ، فتوقف الشاعر يعرك عينيه من وهج القناديل « الكلوبات » على المصطبة ، ثم أخذ يتأمل العمدة ، ووراءه : واجهة ابيضت بالجير ، ورسم عليها قافلة جمال ، كتب تحتها اسم جده وتاريخ حجه . وبين يديه أعوانه وخفراؤه يخاطبهم فى سلطان من يملك مكتب بريد « وتليفون » ولقب حضرة ارتداها جميعها فوق عمته وعباءته وحذائه .

أما الفلاحون ، الذين قضوا نهارهم فى اغتياب الأعيان والتطلع إلى الحسان والسخر من الخفراء ، فقد جلسوا أمام المصطبة ، فى حلقات بين ذوى القربى والجوار والمصلحة ، مستضعفين ، خاشعين ، ذليلين ، إلا كبارهم – فهم على الرغم من سوقهم إلى القصر مخفورين ، والتحقيق معهم على البيلدر مهانين ، وإطلاق سراحهم وما زالوا متهمين – فقد أبوا إلا إظهار دالتهم على الأعيان أمام الضيوف ؛ وهكذا

وضع حسن أفندى يده على كتف العمدة مطرياً :

– والله يا حضرة العمدة أنت فخر كفر شيحا ، ولولاك لما شرفنا هؤلاء العظماء .

وشدّ المأذون على يد الصرّاف مستصلحاً :

– أوحشتنا يا حضرة ، فأين أنت ؛ لك عندى بطة سمينة لا تصلح إلا لغذائك ، أفما تشرفنا ؟

ودنا أبو لبدة من ينّى معابثاً :

– والله يا خواجة ، لم آكل فى حياتى ألذ من سردينك .

كل ذلك وممدوح باشا فى صدر المصطبة ، بين حسان بمعاطف خفيفة وزينة جديدة وصور معجبة ، حتى لكأنهن غير اللواتى كن فى الصيد والقصر ، فما بالهن يملن بين الآونة والأخرى ، عن ممدوح باشا إلى سعادة الناظر غامزات ، مزقزقات ، مستضحكات لمداعبة طوسون فى حضنه – وكان أبوه قد خاف عليه القيسى فأحضره معه – بينما يتقهقر الضيوف مشمئزين من القهوة التى يقدمها لهم الخفراء ، ولكنهم يصبرون عليها انتظاراً لمتعة لا وجود لها فى القاهرة . فأين الشاعر ؟

ودخل الشاعر بربابته ، وجلس فى عظمة ثلاثة : البطل والقصاص والمغنى ، على مقعد عال ، وبدأ بالصلاة على النبى :

« أول ما نبدى القول نصلى على النبى
نبى عربى أجمل ولد عدنان . . . »

وكلما امتد صوته الحنون ، على نغمات ربابته ، فى هدأة الليل الساجى ، انطلق وراءه إلى الحقول حيث نفسه ، فى اليوم الأول من الخليقة ، تحلق فوق اللذة والألم وتقرير المصير . فهل عليه الآن أمارات الجريمة ؟ كلا ، فها إن سامعيه يقابلونه جميعاً بهتافات الإعجاب :

ـ الله ، الله ، يا نور النبى .

وعرّج على قصة الزير سالم :

« قال الراوى : يا سادة ، يا كرام : لما بلغ الملك التبع خطبة الجليلة لابن عمها كليب أرسل فى طلبها ، فأشار العابد نعمان على خطيبها بتجهيز مائة صندوق من طبقتين ؛ فى العليا جهاز الجليلة وفى السفلى فارس مغوار . وعندما أدخلت الجليلة على الملك ، وأدخلت معها كليب فى صورة مهرّج ، جلست بين يديه ، وأمامه الطاس والكاس ، وأنشدته :

لقد قالت جليلة بنت مرة ... شربنا الخمر ما بين الأماره
بحضرة تبّع الملك المسمى ... بحسّان إذا ما شنّ غاره
وقد أمسيت فى قبضة يديه ... ومن حبه شغل قلبى بناره

ألا يا حارس البستان صنه   وإن فرطت فيه الطير طاره

فامتشق كليب سيفه وهجم على الملك وفصل رأسه ، وخرج به على السنان إلى الأبطال والفرسان . »

وصمت الشاعر . . . وتصفيق الفلاحين ، الذى كان يصحب إنشاده ، ما زال منتظماً . إذ خرجوا من وحدة بيوتهم وبهائمهم وآلامهم وحقولهم — وقد توالت معانى قصة الزير كلها على مخيلاتهم — إلى عالم سحرى ؛ لا يشكّون لحظة فى أنه أفضل من عالمهم وأرحب وأجمل . فوجدوا فى انتصار أبطاله متنفساً لشجاعتهم المكبوتة ، وفى كرمهم ملئاً لأيديهم الفارغة ، وفى طموحهم مخرجاً من حياتهم الراكدة . وهكذا بلغوا ذلك العالم ، من غير هدف ووسائل وتنفيذ ، ليستقروا فيه : سعداء بالقمر والعراء والأرض ، ناسين ، على المصطبة ، الأعيان والضيوف والشاعر .

والشاعر ، من فوق مقعده العالى ، يرى الضيوف ، مقبلين على قرفة الخضراء ، فى مثل سعادة الفلاحين . ويعزوها إلى إنشاده — مع أنها ظاهرة مصدرها انعكاس الأضواء على وجوههم وحركاتهم وسكناتهم بحيث أخفت تجاعيدها وساوقت بينها ولطّفت منها — فتعروه نشوة العزيز المسيطر ، بالرغم مما يملكون من ثراء وألقاب وجمال . فأين سكينة هانم ؟

لقد كانت ، فى مصب النور وضيئة وكأنها مضاءة من الداخل ،

تنفث دخان لفافتها من أنفها أمامها ، ثم تبعثره بيديها لتتشوف الشاعر في أوج عظمته ، ثم تبحث بين نظراته عن حبها الذى تحول من رغبة واضطراب ولذة إلى كنز وأمل ومواعيد ، فلا تجد فيه منها شيئاً . وكيف تجد ؟ والشاعر لم يلمس ويذق ويستنشق ويسمع وير ما لمست وذاقت واستنشقت وسمعت ورأت . فهل يتسع وقتها لتعويده كل ذلك فى القاهرة ؟ أم تتنازل له عن جميع ما لا يعرفه ويحتاجه ويشتهيه ، بالعيش معه فى قصر الوقف؟ فتقتل نفسها من أجل فلاح ينكره عليها الفلاحون ويجعلها بعد سنة فلاحة على صورته ومثاله !؟ وشعرت نحو نفسها بالاشمئزاز والسخرية والاحتقار ، فأخفت وجهها عن عيون ضيوفها ولا سيما الوكيل .

والوكيل . . . لا تظنه هو الآخر يستحق أن تقف عليه خلجات قلبها وقطرات دمها وخواطر عقلها ، لكفايته واستغراقه وإسعاده — وما من رجل يستحق ذلك حتى . . . الضابط فكلامه على المائدة فقاقيع صابون أعجبت بأشكالها وألوانها فى عين الشمس ، إلى أن بدّدها نسيم الليل هباء — لقد خبرت الوكيل فى مناقشته ساعة ، وفرت عليها إخفاق سنوات لو كانت تزوجت منه : فهو لا يصلح أن يكون وزيراً . ولا شك فى أن سعادة الناظر سينكل به ، بعد افتضاح أمره فى التحقيق على البيدر .

إذن ! ؟ ستعود إلى سعادة الناظر فتتمتَّع بجاهه الذى يفتح لها أبواب القصور ، وبالأمر والنهى فى الدولة عندما يلى الوزارة ، وبالتنقل بين نوادى القاهرة وملاهيها وحفلاتها . . . مع الوكيل . . . ثم توافى الشاعر فى قصر الوقف : فهى تريد تعدد الأزواج . وهكذا راحت توزع ابتساماتها المرحة على سعادة الناظر والوكيل والشاعر .

فيطرب الشاعر لها ويهم بالإنشاد ، ولكن طلقة رصاصة وقعت بأذنه فأرعبته وسمرته فى مقعده كالخشب ، حتى سمع نباح كلب فاطمأن ، وقد أدرك أنه كلبه يرد على طلقات الساهرين على حقولهم ، ويتحدّى سعال بعض الخفراء المتوسّدين بنادقهم ، ويعبث بنقيق الضفادع الأرقة فى الترعة : كل ذلك ثمن لعظمة من القمامة يسبق بها غيره من الكلاب ، وقطعة « عصب » ينالها من الوقف كل خميس ، وكسرة تلقمه إياها خديجة فى غفلة من عبد الرازق . فأين هو الآن ؟ لقد استطاع ذلك الشاعر الأبله ، الخامل ، السلبى ، بضربة فأس ، أن يتحرر من طمعه وتقتيره وتزويره ، ومما وضعه فى دمه من جبن وتردد ، ومما بيّته له على يد الأعيان والضيوف من سخرية وزجر وضرب . إن بوسع الشاعر بعد اليوم ، إتيان أى أمر ، فى أية ساعة . مع أى إنسان . فما بال هؤلاء الذين ظن أنه قتلهم بقتل عبد الرازق تتحداه جثثهم فى تفسير أقواله للحسان والضحك منه مع الضيفان والعبث بخاله شيخ الخفراء ! . . . ثم يهملون شأنه فما

يسألونه الاستئناف ، ويحولون بين الفلاحين فى محضرهم وبين طلبه . فأين الفأس ؟ وما حاجته إليها ! وعنده من الفلاحين ألف قبضة ! هؤلاء الفلاحون يعرفهم جيداً : لا يقبلون إلاّ على القديم ، ولا يحسون إلاّ بالعنيف ، ولا ينطلقون إلاّ وراء المستحيل ، فإن هو استفزهم ، ذكر لهم قصة الأفدنة العشرة التى تغتصب منهم . . . وتناول الشاعر ربابته واعتدل فى مقعده ، ثم انطلق :

« قال الراوى يا سادة ، يا كرام : هذا ما كان من أمر الملك التّبع ، أما كليب فقد قتله جساس ولكنه ترك لأخيه الزير المهلهل وصيته مكتوبة بدمائه على حجر . فلما قرأها ركب إلى بنى بكر متسربلا بالسلاح كأنه ليث البطاح ، وعلى رأسه الرايات والبنود ، ومن حوله القواد والجنود ، حتى إذا التقى الجيشان ما كنت ترى إلا رؤوساً طائرة ودماء فائرة . والمهلهل يقول وعمر السامعين يطول . صلوا على طه الرسول :

ذهب الصلح أو تردوا كليباً أو نبيد الحى بكراً وذهلا
ذهب الصلح أو تردوا كليباً أو أبقى الرجال قهراً وذلا
ذهب الصلح أو تردوا كليباً أو تعم السيوف شيبان قتلا...

كل هذا والشاعر متقمص شخصية المهلهل يخوض معاركه ، ولا تغيب عنه صورته فى عيون الفلاحين ، فيرى جموعهم — وقد استجابت له فى حالة نفسية خالصة — تتحرك بنغماته ، وسحنتهم تتعدل على صيحاته ،

وأنفاسهم تتقطع لدى سكناته . ويزيدهم صفعاً وعضاً ورفساً ، ببغضه ووعيده وثأره ، فيقدح الشرر فى عيونهم ويلهب من التصفيق أكفهم ويطلق بالهتاف حناجرهم ، حتى خيل إليه أنهم حطموا سلاسلهم : عقد الإيجار الذى يربطهم بالوقف وقسيمة الصراف التى تخضعهم للحكومة وأمر العمدة الذى يسوقهم إلى السجن وديون ينى التى تصلهم بالعالم المتمدين . فإذا توقف الشاعر عن الإنشاد طلباً للراحة من المعارك التى خاض غمارها ، نهض إلى حلقة المبارزة عوف وأبو لبدة وراحا يديران عصويهما حول رأسيهما، على شكل دائرة ، للملامسة والدفاع . والشاعر يتخيل مئات العصى يهوى بها الفلاحون على الضيوف أول ما يذكرلهم قصة اغتصاب الأرض منهم ، إلى أن لمح بعضهم يلتقطون أعقاب اللفائف التى تلقيها الحسان أمام المصطبة ، فأحس بشىء أصفر كعقب اللفافة يبحث عن مكان فى قلبه ، ثم يتصاعد إلى عينيه ، على شكل دوامة دم ، تتقاذف رأس عبد الرازق والفأس والفرن ، مع خوار جاموسة وطلقات رصاص ونباح كلب .

وعرك عينيه ، ثم نظر إلى الفلاحين مستنجداً ، فألفاهم متجمعين حوله كسقوط العصافير على حب البيدر ؛ لا غاية جماعية لها ولا أهمية أو نتيجة منها . وهتافهم ! هتاف حلوق لا قلوب . وتصفيقهم ! تصفيق مفاصل لا ضمائر . وهزجهم ! هزج أطفال . أحدثوا من كل

ذلك ضوضاء ساعة ينصرفون بعدها إلى بيوتهم وبهائمهم وحقولهم ، أغرب ما يكونون عن الجماهير التى تذهب إلى أبعد مما تسمع وتحزر وتحلم .

وارتعدت فرائص الشاعر من هذه الكتل الصماء ، البكماء ، الثقيلة. وأشاح عنها إلى الضيوف ، فإذا هم يتغازلون ويتندرون ويضحكون ، فى نبرات خافتة ، لئلا يوقظوا طوسون المستكين إلى صدر مربيته ، غير بعيد من الركن الهادئ الذى اعتزل فيه المندوب ، وراء دخان من لفائفه يصل بين لون بنطلونه واسمرار صلعته فى صورة رمادية ، باهتة ، مشوهة . فما يسر لجاره الضابط المتشاغل بتعبئة غليونه ؟

— عندنا الجيش . وهو بعيد عن الرأى العام الذى يعكس الوقائع ويفسدها . وبيده قوة لا تضارعها قوة عدة وعدداً . وله من الاحترام مهابة تمكنه من الحركة ، والسهر على مراحلها ، والبلوغ بها الأوج .

ولم يفش الضابط سرَّه .

— وهل ترى الحركة تصل إلى غايتها على يد جيش مقاليد أموره ؟ . .

وأشار إلى العصا الصغيرة فى يد حسن بك ابن عمه .

— حسبه الغاية التى سعى إليها ، ثم الأثر المترتب عليها ، مع العلم بأن قيمتها معنوية فوق الفشل والنجاح .

وكانت السيدة نجلاء تسترق السمع إلى كلام المندوب ، وترقب موافقة الضابط عليه . فلما لم يفعل زعمته له ، ونهضت إلى سعادة

الناظر تزفه إليه ليبلغ كرسى الوزارة عن طريقه .

واستيقظ الشاعر على لغط الفلاحين .

ـ لا بدّ من اعتقال الزير .

ـ ولكنه سيهرب إلى بيروت .

ـ وعندما يعود يقتله الجرو بن كليب الفارس الدعاس .

ـ من قال لك ذلك ؟

ـ ليتم الشاعر قصته فتر .

هكذا انقسم الفلاحون قسمين : أتباع العمدة يشايعون الزير ، وأنصار حسن أفندى يطالبون بالجرو بن كليب . ولكنهم أجمعوا على نثر النقود على الشاعر ، ثم نزع لبدهم والقذف بها فى الهواء ، وطوسون يضحك لهم بعينيه ويديه ورجليه . ولما رأى المأمور الشاعر لا يأبه لخصومات الفلاحين ونقودهم وحماستهم خشى أن تقع الفوضى بينهم فصاح فيه :

ـ ألا ترى لبدهم فى الجو ؟

ورفع نظره .

ـ يجب الاستئناف .

وأحنى رأسه .

ـ قلت لك : أن أنشد .

وعندما أطبق الشاعر فمه غضب المأمور لكرامته يهددها فلاح حقير

أمام العظماء . فما يقول الفلاحون فيه بعد عجزه عن القيسى نسيبه ! فهل ينهض إليه يشج رأسه ؟ كلا بل يأخذه بالحسنى :

ـ لسنا على البيدر الآن .

ـ هه .

ـ هذه المرة لن تفلت من يدى .

ـ ها .

ـ ما زلت متهماً بالحريق .

ـ آه .

ـ وبوسعى القبض عليك .

وطرب سعادة الناظر للسجن يؤمن وراء قضبانه حياة الشاعر من غدر مطلقته ، فتوجـّه نحو المأمور آمراً :

ـ أجل ، يجب أن يحكم عليه بالحبس خمس . . . لا بل عشر سنوات ، ما دام هو الذى أحرق البيدر .

وصرخت سكينة هانم بسعادة الناظر :

ـ اصمت أنت .

وبالوكيل :

ـ وأنت انطق : هل ثبتت التـّهمة عليه ؟

وبالشاعر :

ــ أنشد أنت ، وعلىّ . . .

ــ ها .

فثارت ثائرة المأمور وهجم على الشاعر متوعداً :

ــ لئن ظننت أنك تنجو من السجن بترديدك : ها وهه وآه : فإنى ملقيك بالعباسية طول حياتك .

وبحثت سكينة هانم عن العمدة وصاحت :

ــ قدموا له الشاى والقهوة والقرفة . ليس الشاعر مجرماً ولا مجنوناً ، ألا ترونه مريضاً ؟

ثم نظرت إليه ، وهويتفرّس فيها ، نظرة رحيمة تركت فى نفسه أثراً عميقاً . فقال :

ــ متشكر .

ثم استأنف :

« قال الراوى ، يا سادة ، يا كرام : وكان الزير طريح الفراش فى الخيام من كثرة شرب المدام ، وإخوته فى الصيد لثلاثة أيام . فكبسه سلطان أخو جساس فى ثلاثة آلاف فارس دعاس ، فقبضوا عليه وأثخنوا الجراح فيه ، ثم حملوه فى جلد جاموس إلى أخته ضباع ، وقالوا لها قد أتيناك بقاتل ولدك ، فخذيه واشفى منه غليل كبدك . . . »

فإذا سكن الفلاحون ، واطمأن الضيوف ، وتسارت الحسان ، نهضت سكينة هانم إلى ابنها الغافى فى حضن مربيته ، فتناولته بيدين تدفق عليهما من قلبها حنان الأم أمام خطر يهدد وحيدها بغتة ، ولم يكن قد مرّ ببالها لحظة من قبل . ثم حصرت حياتها فى الدفاع عنه ، فقصدت أباه المنزوى عن العيون عند طرف المصطبة ، وما استقرت إلى يمين سعادة الناظر حتى ذكرته ابنه بنبرة مرتعشة خافتة :

ــ أنسيت يمين طلاقك التى لا رجعة فيها !

واستشف بعض ما فى خاطر مطلقته فتمتم :

ــ لكننى اعترفت لك بأعراض الحمل ولنفسى بأبوة الجنين . وليس هناك غير طوسون .

ــ وهل رد يمينك المأذون والمحكمة الشرعية ودار الإفتاء بالفتوى ؟

ــ كلا ، لأن حكم الشرع واضح : المحلل .

ــ هذا المحلل اعترفت أنا للمأذون قبل عقد قرانى عليه بانقضاء عدتى .

ــ وماله ؟

ــ لا شيء ، سوى أن أصبح طوسون ابنه شرعاً وعرفاً وديناً وقانوناً ؟

وكاد سعادة الناظر يستلقى من الضحك ، ثم أمسك وأجاب .

ــ كيف يصبح ابنه ! وهو لم ينجبه ، وإنما كان خادماً لأبويه . أوَ تظنيننى ضعيفاً بحيث أدع الشاعر ينازعنى فى ابنى؟ . . .

وقاطعته بلهجة صارمة :

— ومن قال لك إن الشاعر . . .

— . . . ومن إذن ؟

— خصومك فى السياسة يكشفون عن كل ذلك للتشنيع علينا . . .

وبأسرع من لمح البصر خطف سعادة الناظر طوسون من مطلقته ، واحتضنه بحيث كاد يخفيه عنها ، ولكن نظراتهما تلاقت عليه فرأياه : فتى من أسرة عريقة ، على وقف عريض ، يبسم له مستقبل باهر .

ورق صوت سعادة الناظر :

— وهكذا يستطيع الشاعر الفلاح — بعد تسع سنوات ، هذا إذا لم يطعن فى أخلاقك أو تتزوّجى — المطالبة بطوسون ونسبته إليه وإقامته عنده .

واستعبرت سكينة هانم :

— وجعله يحيا حياة الفلاحين ، يبدد أمواله فيفتقر ، ويصرفه عن المدرسة فيجهل ، ويهمل شأنه فيمرض .

— ولعلّه يفتك به فيرثه .

وذعر الأبوان من تصورهما وحيدهما خرقة مهلهلة معلقة بالشاعر الفلاح الأبله ، يجرجرها وراءه فى القرية والحقل والسمر ، حيًّا وميتاً . ثم استيقظا على ألم عنيف مبرح ، أحس به سعادة الناظر قشعريرة بسلسلة ظهره فتأوه :

ــ ولو مت أنت قبله ــ لاسمح الله ــ لورثتك .

ووضعت سكينة هانم يدها على قلبها الواجف وتنهدت :

ــ ولو بقيت حية لظللت زوجته ، حتى بعد صلحى معك ورزق منك عشرات البنين والبنات .

ــ صدقت ؛ فلن يعترف بهم . . .

ــ . . . ولن ينالوا من الوقف غلة قيراط .

ــ وأنا ! من يتزوجنى ؟ وقد نيفت على الخمسين .

ــ ولكن مركزك . . .

ــ مركزى ! هى واحدة اغترت به ؟ فإن كانت غنية تجاوزت السن ، وإن كانت فقيرة لم أجد عندها ما أورثه أبنائى منها . لقد أخرجنى الشاعر الفلاح الحقير الأبله من زواجى وأبوتى ووقف أجدادى ، من عالمى كله ، صفر اليدين ، ليحل محلى فى جميع ذلك .

ــ وأنت تريد إيداعه السجن ، أو إلقاءه فى العباسية . وفى كليهما يمتنع علينا أن نزوّر باسمه فى سجل المأذون ، ونصل إلى عنقه . . .

ــ صدقت ؛ علينا أن نطلقه هذه الليلة ، ثم نكلف الخولى الخلاص منه ، قبل الفجر .

وأصغيا إلى الشاعر ، فسمعاه يقول :

« ولما خرجوا أفاق الزير من غشوته وأنشد يقول : صلوا على طه الرسول ،

يقول الزير أبو ليلى المهلهل ونار الحزن توقد فى حشاه
أتوا بى لعندك يا أخت حتى تنالى الثأر يا غاية مناه
فأنت تشبهى اللبوات حقاً وإنى مشبـه سبع الفلاه
فأبقينى بصنـدوق مزفت وارمينى ببحـر فى مياه

كان الشاعر — وهو ينشد رجاء الزير لأخته ضباع ، على ربابته إنشاداً آلياً عن ظهر قلب — يتأمل هؤلاء الفلاحين الذين تنكروا له ، وخذلوه ثم أرغموه على الاستئناف ، فيرى فى كل واحد منهم عبد الرزاق . وعنّ له إعادة خلقهم : فوضع جمجمة العمدة العريضة على كتفى عوف المنحنيتين ، وجبهة عوف الضيقة فوق عينى الصرّاف السوداوين ، وبشرة الصراف السمراء للخولى وشيخ الخفراء وأبى لبدة ، ولكن عبد الرازق ظل بينهم فى سمات متكررة ، ساهمة ، شاحبة . لا يلوح وراءها قبح أو جمال ، عبوس أو بشاشة ، ذكاء أو بلاهة ، شر أو خير . مما تعكسه النفوس على أجسادها من ادخارها نضارة الطبيعة وسذاجة الطفولة ونشاط الرجولة وحكمة الشيوخ . وإنما ميوعة خلطت بعضهم ببعضهم الآخر ، فلو استبدلوا أمخاخهم وقلوبهم وأرواحهم من أفكار عبد الرازق وعواطفه وأخلاقه لما تغير عليهم شيء . ولو بعث عبد الرازق ووراءه ملايين أسلافه ، الذين ماتوا منذ أجيال ، بين هؤلاء الفلاحين لما أنكروا منهم عودتهم معهم إلى بيوتهم وبهائمهم وأدواتهم وحقولهم ، بمثل أفكاره ... والفأس تتأرجح

أمام عيني الشاعر كرقاص الساعة ، بين أعناقهم وعنق عبد الرازق ، حتى عادوا إلى المهلهل :

ـ أخرجه من الصندوق .

ـ لنشهد معه الواقعة بين النصارى واليهود .

ـ ساعة كان راكباً على الجدار كركوب الحصان .

ثم نثروا دراهمهم ، وقذفوا لبدهم ، وأطلقوا حناجرهم ، ولكنهم لم يحركوا من الشاعر ساكناً ، بل أيقظوا طوسون النائم فى حضن أبيه ، على بكاء وصراخ وعويل ، فتناولته أمه ، وخفّت إليه الحسان ، واجتمع حوله الضيفان يهدهدونه ويتملقونه ويداعبونه . فيحس الشاعر نحوه ببغض وغيرة وغل ، على قدر حب أبويه له لأنهما هدداه بالقتل ، وعناية الضيوف به لأنهم سخروا منه وزجروه وضربوه ، ووجوم الصاغ والمندوب أمامه لأنهما دفعاه ، من حيث لا يدرى ، بثرثرتهما على المائدة وفى الطريق وفوق البيدر ، إلى قتل عبد الرازق . فلم يبق له أب يرعاه رعاية الناظر لابنه طوسون ، ولا . . . ولا . . .

واصطنعت السيدة نجلاء حيلة سكينة هانم ـ المنطوية على وحيدها المنتحب ـ مع الشاعر فى إغرائه ، فابتسمت له نصف ابتسامة :

ـ ألا تسمع صراخ طوسون ! أم قدّ قلبك من صخر ؟

فنظر إلى ربابته .

وفطنت جيهان هانم لمرمى صديقتها فتلطفت فى لهجتها :

– أنشده بصوتك العذب يعاوده النوم .

فتناول ربابته وجمد مثلها .

وضاقت السيدة نجلاء بتردده فصاحت فيه :

– أليس له عليك حق ؟

– حق ! ؟

– أتجرؤ على السؤال ؟ أجل حق السيد على خادمه .

وسرعان ما اعتذرت جيهان هانم عنها :

– بل حق الطفل على الكبار جميعاً .

فألقى الربابة من يده .

عندئذ أدرك سعادة الناظر أن الشاعر قد حرن حرون البغل ، ولا سبيل إلى استئناف القصة من بعد ، فنهض يحتضن ابنه ، ويعتذر لضيوفه بالانصراف . وفجأة تذكر شيئاً فارتد إلى الشاعر وسأله :

– هل سلمت أباك الرسالة ؟

– نعم .

وأمره العمدة :

– أرسل إلىّ أباك باكراً .

– حاضر .

ـ لأن ينّى قدم لى شكوى عليه ، بأنه اقترض منه مئة وثلاثين جنيهاً ، لقاء رهن الجاموسة عنده ، ثم باعها .

ـ الجاموسة ملكى وأنا بعتها .

وأجفل شيخ الخفراء :

ـ أنت تبيع الجاموسة ! وهى كل مالك من دنياك ؟

وطمأنه الصرّاف :

ـ كل شىء ممكن ، إلا أن يبيع الشاعر جاموسته .

وكذبه الخولى :

ـ باعها أبوك فى السوق . . .

ـ أنا طلبت منه بيعها لشراء الأرض المطروحة بالمزاد .

ونهره العمدة :

ـ ومن يدفع ديون ينّى ؟

ووضعت سكينة هانم يدها على فم وحيدها وصاحت بالعمدة وأعوانه :

ـ أنا أدفع عن الشاعر مئة وثلاثين ، بل خمسمائة ، بل ستمائة جنيه . فدعوه وشأنه .

واستدرك الشاعر .

ـ ولكنك ، فى الصباح ، ادعيت الإفلاس لمساومتى على عشرة جنيهات . . .

- . . . والآن أقدم لك كل ما تحتاج إليه .

- طلقت أو لم أطلق .

- كما يحلو لك .

- وفى ينتى دينه إذن .

قالها ؛ ثم نهض يصلح جلبابه الفضفاض فوق صداره المزخرف ، فإذا هم بربابته استوقفه المأمور مذكراً :

- لا تنس إرسال أبيك إلى العمدة . فما زال المتهم الوحيد الذى لم تثبت براءته .

واستطرد الحولى :

- لو كان بريئاً لما فر من السوق وتخلف عن السمر .

وضحك الوكيل :

- إلا إذا اعترفت بحريق البيدر كذلك .

فجلس الشاعر حول ربابته غاضباً ، مهموماً ، متحدياً ؛ لقد رأى فى فنجان المندل عوفاً لا عبد الرازق ، فإن هو أشهره فضحته أخته ، ولكن كيف تتستر أسرة تضم رجالا ونساء متنافرين على جريمة قتل ؟ ثم توفق إلى كتمانها مهما كانت مصلحتها فيه ! ومصلحة القتيل . أليس الفرن آمن لعبد الرازق من جرجرته أمام خصومه إلى دوار العمدة والمركز والسجن ؟

ــ والبيدر أنا أحرقته .

ــ ولكنك أنكرت من قبل .

ــ لأنك أهنتنى بعنادك أكثر منك باعتقالى ، ثم لم تطلق سراحى إلا إكراماً لسكينة هانم . . .

وأغضى سعادة الناظر عن كرامته ــ وبودّه لو يفعل الضيوف جميعهم مثله ــ وقال للوكيل :

ــ لا تغضب . . .

ــ . . . وهل يسمح لى مركزى بالغضب من فلاح ؟

ــ فاعتذر له إذن .

ــ أنا !

وتشجع الشاعر :

ــ وحضرة المأمور صفعنى .

وظن المأمور أن سعادة الناظر يعبث بالشاعر عبثه على المائدة ، فأدار له خده ، ورجاه :

ــ تفضل اصفعنى .

ــ وهل أنا وقح ! ؟

ثم جمع يديه على مقبض الربابة ، وأصلح ذقنه فوقهما ، ثم قال :

ــ ومع ذلك فقد اتهمونى .

وتضاحك سعادة الناظر :

– كنت عندنا تخاف من إشعال عود ثقاب يضىء ظلمتك ، فمن له ذرة من العقل ويسلم بإحراقك البيدر وفى الليل ؟ وهكذا !..

– أنا .

– أنت معتوه .

– معتوه ما دام اعترافى فى غير مصلحتك .

– وهكذا بدون سبب ؟

– السبب موجود : لأنك ، وأنت تملك ألف فدان ، جعلت الحولى يزاحمنا فى عشرة .

– أنا ، دائماً وأبداً أنا . وما همك أنت ! هل هو بيدرك ؟ إنه للوقف ، وأنا ناظره . وأنا أتنازل عن التحقيق فى الحريق ، وأترك للفلاحين ما يحبون من الأرض ، وأساعدك أنت بالذات على شراء ...

– ... ثلاثة أفدنة وثلث .

وأكبر الضيوف شهامة سعادة الناظر وكرم سكينة هانم من قبل ، وفرح حسن أفندى وأشياعه بالأرض يستولون عليها ، واحتار العمدة وأتباعه فى استخذاء سعادة الناظر وزوجته أمام عناد الشاعر ، أما الفلاحون – وقد بعث انتصار شاعرهم فوق المصطبة ذكرى فوزه على البيدر – فقد صفقوا له طويلا حتى أشركوا معهم فى تصفيقهم سعادة الناظر

وضيوفه ، والعمدة وخفراءه ، والخولى ومياوميه .

وعندما سكنت ضجتهم قصد سعادة الناظر ابنه الأرق بين ذراعى أمه ، فتناوله منها محتضناً ، ثم دفعه إلى الشاعر مكرماً :

ـ احمله معنا إلى القصر .

وبسط الشاعر يديه صائحاً :

ـ فلا يذهب إلى العمدة غداً .

ـ ولماذا ؟

ـ لأنى قتلته .

ـ من ؟

ـ هو .

ـ أليس له اسم ؟

ـ عبد الرازق .

وأسرعت سكينه هانم تنتزع وحيدها من يدى الشاعر وهى تصرخ فيه :

ـ يا لك من مجرم .

ـ أفضل من أن تكونى المجرمة وأنا الضحية .

وهدأ سعادة الناظر من روعها :

ـ وهل صدقته إنه مراوغ يريد صرفنا بهذه الخزعبلات عن أبيه المجرم الحقيقى .

ثم ارتد على الشاعر ناصحاً :

– اصمت . ألا ترى أنك تلقى بنفسك إلى التهلكة ؟

– ومن قال لك إنى أبغى غيرها !

– ونحن ؟

– أنتم السادة الأغنياء لا قبل لفلاح حقير مثلى أن ينال غبار أحذيتكم بأذى .

– ولكنك لا تعرف مبلغ إساءتك إلينا .

– لأنى لم أستأذنكم فى بيع الجاموسة وإحراق البيدر وقتل عبد الرازق .

– ولماذا قتلته ؟

– ألم يخطر ببالك يوماً كسر طبق على المائدة ؟

– ماذا تقول ! وهل أنت مجنون لتقترف جميع هذه الجرائم فى يوم واحد ؟ أم تريدنا على الجنون ؟ أم أن قصة الزير أثرت فيك ؟

– وما كنت أصنع بعبد الرازق بعد بيعه الجاموسة ؟ واتهامه بحريق البيدر ؟ وضياع الأرض علينا ؟

وهزّ سعادة الناظر كتفيه ، وقلب بين الناس عينيه ، ثم خاطب الشاعر :

– على كل ، أبواب القصر مفتوحة لحمايتك .

ولأول مرة فى الحياة خطر للشاعر أن يجيب بغير ما تعوّده ملايين

الفلاحين من : أنا فى عرضك يا سعادة البك ، أقبل رجلك ، أنا خدامك. ولو كلفه جوابه حبلا فى عنقه ، فرفع عقيرته .

ـ لا .

ـ ولكن . . .

ـ . . . ولكن منذ أشهر هددتمونى بالقتل والشنق . فما الفرق بين الأمس واليوم ؟

وناولت سكينة هانم طوسون للمربّية ، ثم دنت من الشاعر مستعطفة :

ـ لا تكذب ، نحن نحبك كما أنت : فلاح ، أبله ، مجنون ، مجرم ، لا شأن لأحد بك ، فتعال معنا إلى القصر ، وهناك تأخذ معطف سعادة الناظر وخفه ، وأسهر عليك فى مخدعى حتى تصحو .

فضحك الشاعر .

وتدخّل المأمور :

ـ يا للأسف لو أمكننى تصديقك .

ـ وما كنت تصنع بى ؟

ـ سأرسلك إلى العباسية .

ـ أضحك من المجانين .

ـ ألقيك فى السجن .

ـ أنشد للمساجين .

ـ وإذا حكم عليك بالإعدام ؟

ـ أرتاح منكم .

كل هذا وممدوح باشا يعد أقراط الحسان ، وبنته العانس تتأرجح بين قائد الجناح والسيد سليم المتراهنين على براءة الشاعر أو جنونه ، والسيدة نجلاء تسأل جيهان هانم عن شيخ الضريح فلعله « كتب» له ، والوكيل يقول للضابط :

ـ ما رأيك بعد اليوم بإطلاق الحرية لخمسة عشر مايوناً من الفلاحين؟

فيردُّ عليه :

ـ لو كان مجرماً لخرج علينا صائحاً : لقد قتلت أبى ، أو يأتى من الأقوال والحركات والسكنات ما يفهم منه أنه قتله .

واستطرد المندوب :

ـ أما أن تسوغ له نفسه أن ينشدنا ليلة الجريمة ، فهذا لا يأتى إلاّ من مجرم فاجر ذكى هو أبعد الناس عنه .

ـ أوَما زلت تشك فى ذكائه بعد الذى سمعته من محاورتنا اليوم ؟

إلا أن تكوينه العقلى والروحى والوجدانى لم ينم بنمو جسمه ، لانعدام تدريبه على النظام والدأب والاستيعاب .

وعلى ذعر سعادة الناظر وهلع زوجته انفتح أمام الوكيل عالم خفى بوسعه ولوجه عن طريق الشاعر ، وهدم أركانه وتحطيم سكانه ، انتقاماً

لكرامته مما أصابها طوال ذلك اليوم . وأشعل الوكيل سيجاره المنطفئ وقال :

ـ أنا من رجال النيابة ، ولى فى التحقيق خبرة تجهلانها ، ثم اتجه نحو الشاعر لتجريمه ، وقال :

ـ أنت قتلت أباك ؟

وأحس الشاعر أنه أشرف على مورد مهلك ، فمال بطبعه إلى النفور منه والتباعد عنه : فى الريف جنايات كثيرة لا يهتدى إلى جناتها ، وله فى القيسى خير مشجع ، فإن التحق به مستجيراً ؟

ـ قتلت أباك أو لم تقتله ؟

ـ والله ، لست أدرى .

ـ كيف لا تدرى ؟

ـ مهما قلت لكم كذبتمونى .

ـ لأنك . . . إن قلت أبيض يكون أسود .

ـ إذن أنا لم أبع الجاموسة ، ولم أحرق البيدر ، ولم أقتل عبد الرازق .

ـ تعنى أنك بعت وأحرقت وقتلت .

ـ كما تشاء .

وانتصب الشاعر فوق مقعده العالى عملاقاً ، منسلخاً من الليل ونجومه ونسيمه وسكونه ، فى قوة وبهاء وغرائب ، ثم مد يديه نحو المأمور وغمغم خاشعاً :

ـ هأنذا .

ـ صه .

ـ أقول هأنذا .

ـ إنى أراك جيداً ، فابق فى مكانك .

ولكنه تقدم خطوة، فأغمى على سكينة هانم ، وصعق سعادة الناظر ، وبغت الضيوف ، ووجم الفلاحون ـ الذين شق عليهم استبدال صوت شاعرهم العذب ، يدعوهم إلى الصلاة ، من صوت أبى لبدة الأجش ـ وذعرت الحسان من قضاء معظم نهارهن مع شاعر مجرم ، مجنون ، فصرخن فى الرجال :

ـ اقبضوا عليه لئلا يؤذينا .

فاستلقى الشاعر على قفاه مقهقهاً .

وعاوده الوكيل متهكماً :

ـ وهل تقدر على النظر إلى أبيك ، لاقتله ؟

ـ كلا .

ـ إذن ؟

ـ لم يكن يرانى .

ـ وما كان يفعل ؟

ـ كان ساجداً للصلاة .

ـ وبأى شيء قتلته ؟

ـ بالفأس .

ـ لابدّ من تفتيش البيت للتحقيق . . .

ـ . . . وفيم التعب ؟ اهدموا الفرن تجدوا عبد الرازق .

وتطلع الناس جميعاً إلى عيني الشاعر : ليس فيهما ندم أو همّ أو خوف ، وإنما شر منها : لا شيء .